المساجد والقصور في الأندلس

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ بالإسكندرية

مقـــدمة

تختلف الحضارة الاسلامية فى المغرب والأندلس اختلافاً بيناً عن غيرها من حضارات البلاد التى أخضعها الاسلام لسطانه . وكان المغرب والأندلس يؤلفان جـزءاً منفصلا عنبقية العـالم الاسلامى لبعدهما الشاسع وعزلتهما عنه نتيجة للانفصال السياسى الذى حدث على أثر سقوط الدولة الأموية بالمشرق وقيام الدولة العباسية . وقد استطاع عبد الرحمن الداخل ، أحد أمراء بنى أمية بفضل ما أوتى من ألمعية أن يؤسس ملكاً بعد فنائه ، اذ اقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، فضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بحسن سياسته حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحوزته .

وما كاد عبد الرحمن الداخل يستقر بقرطبة ويستقيم أمره بهـا حتى بنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة . ومنذ ذلك العهد بدأ فـن العمارة يتلمس طريقه فى الأبنية الدينية والمدنية . فقد عمد عبد الرحمن بن معاوية منذ أن استقام له الأمر الى تجديد ما طمس لبنى أميـة بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، فشيد الدور وأقـام القصور . وكان بحكم بعده عن دمشـق مسقط رأسه يحن الى أرضـه حنيناً متواصلا ، فأقام منية الرصافة شمالى قرطبة لنزهه وسكناه واتخذ بها قصراً حسناً ودحا جناناً واسعة ونقل اليـه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية وسماه باسم رصافة جده هشام . وتأثر فى بنائه للمسجد الجامع بقرطبة بالجامع الأموى بدمشق .

ومنذ ذلك الحين نبت الفن الاسـلامى بالأندلس ومـا لبث أن ترعرع فى العصور التالية حتى وصل الى ذروة نضارته فى عصر بنى نصر ، ثم هاجر هذا الفن الى المغرب بعد أن طرد من بلاده التى ولد

فيها على أثر الاسترداد المسيحى وقدر له أن يقضى فيه البقية الباقية من حياته .

ومن الغريب حقاً أن نلمس باسبانيا فى الوقت الحاضر آثار التقاليد الاسلامية فى جميع مظاهر الحياة العمرانية ، فما زالت تحتفظ منذ انتهاء دولة الاسلام بالأندلس بتراث هائل من هذه التقاليد ، وما زالت مدنها تحمل ذلك الطابع الاسلامى الذى عمد ملوك اسبانيا المسيحية المتحدة دون جدوى الى محوه : كل ذلك بفضل الصبغة الاسلامية التى تأصلت طوال ثمانية قرون فى كيان اسبانيا الاجتماعى والفكرى والاقتصادى وبفضل الروائع المعمارية التى خلفها مسلمو الأندلس فى مدنهم وقراهم ومجاشرهم بعد أن حرموا من الحياة فى وطنهم ومسقط رأسهم .

هذه العمارة الأندلسية تستحق منا الدراسة والاهتمام باعتبارها الآثار المادية القائمة التى تشهد بما أحرزته الحضارة الاسلامية فى اسبانيا فى العصور الوسطى من تفوق على سائر الحضارات الأوربية .

الأسكندرية فى يناير ١٩٨٦

السيد عبد العزيز سالم

الفصل الأول

المســـــاجد

أولا : المسجد الجامع بقرطبة .

ثانيا : المساجد الأندلسية فى عصر الدولة الاموية وعصر ملوك الطوائف

ثالثا : المسجد الجامع بقصبة اشبيلية .

أولا — المسجد الجامع بقرطبة

لم يخلد أثر من الآثار الاسلامية فى كتب التاريخ كما خلد المسجد الجامع بقرطبة ؛ فقد كتب عنه جميع مؤرخى العرب فى المغرب والأندلس ووصفوه وصفاً دقيقاً فاق كل وصف ، ولولا أن هذا الأثر الجليل مايزال قائما حتى اليوم تشهد عناصره بصدق أقوالهم لكنا قد اعتبرنا هذه الأوصاف ضرباً من الخرافة أو نوعاً من المبالغة الخيالية . ولقد عظم أهل الأندلس هذا المسجد ، ويرجع ذلك التعظيم الى أن حنش بن عبد الله الصنعانى وأبا عبد الرحمن الحبلى التابعين توليا تأسيسه بأيديهما ؛ وقوما محرابه . واحتفظ الأمير عبد الرحمن الأوسط بالمحراب القديم فى زيادته لبيت الصلاة (١) ، كما احتفظ المسجد الجامع فى زياداته المتتابعة باتجاه القبلة الذى حدده حنش الصنعانى . ومن مظاهر اجلال هذا الجامع ما نعتـه به مؤرخو العرب ، فقد سماه المراكشى بالجامع الأعظم (٢) . وكذلك أسماه ابن بشكوال (١) وابن الخطيب (٢) ، ووصفه الادريسى بقوله : « وفيها الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتمنيقاً وطولا وعرضاً (٣) » . وقال عبد المنعم الحميرى : « وفيها المسجد الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره، من أجل مصانع الدنيا كبر ساحة ، واحكام صنعة ، وجمال هيئة ، واتقان بنية ، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة

---

(١) انظر الرسالة الشريفية فى الاقطار الاندلسية للغسانى ص ١١٦—١١٧

(٢) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ، تحقيق سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(١) نفح الطيب للمقرى ، طبعة محيى الدين عبد الحميد ج ٢ ص ٩٩

(٢) ابن الخطيب : كتاب أعمال الاعلام ، نشره ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ ص ٤٣ ، ٤٨ .

(٣) الادريسى : وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة ايشتاق تحقيق دوسيه لامار ، الجزائر ١٩٤٩ .

وتتميماً اثر تتميم حتى بلغ الغاية فى الاتقان ، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف (١) » .

وقد بلغ من اجلال أهل الأندلس وتعظيمهم لمسجدهم الجامع أن جعلوه مركزاً يحجون اليه ، وفى ذلك يقول ابن المثنى شاعر عبد الرحمن الأوسط من قصيدة :

بنيت لله خير بيت يخرس عن وصفه الأنام

حج اليه بكل أوب كأنه المسجد الحرام

كأن محرابه ، اذا ما حف به ، الركن والمقام (٢)

ويعتبر المسجد الجامع بقرطبة أروع أمثلة العمارة الاسلامية والمسيحية على السواء فى العصر الوسيط بفضل ما تضمنه من ابتكارات معمارية وثروات زخرفية ، وقد أنقذته هذه الجلائل من موجات التخريب التى تبعث الاسترداد القومى الاسبانى ، وشملت العدد الأعظم من آثار الاسلام فى الأندلس . ويعد هذا المسجد العظيم الاثر الوحيد فى اسبانيا لعصر من أرقى العصور التى مرت عليها فى الوقت الذى كانت تنغمس فيه الدول الأوربية الأخرى فى ظلمات الجهل والانحطاط ، كما أن بناءه يحتضن فى عناصره ذلك المجد الذى بلغه الفن الاسبانى الأموى . ويمكننا أن نجزم القول بأن جميع التطورات التى أصابتها العمارة الاسلامية المغربية تعتمد فى أصلها على هذا المسجد ، لأنه يضم العناصر التى أخذت فى الظهور بعدئذ فى عهد ملوك الطوائف وفى عصر دولتى المرابطين والموحدين والتى بلغت ذروة تطورها فى

---

(١) الحميرى : كتاب الروض المعطار ،نشرة ليفى بروفنسال ، لندن ١٩٣٨ ص ١٦٨ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ٢٢٥ — ٢٢٦ .

عصر دولة بنى نصر • وبغض النظر عن أهميته العظمى للفن الاسبانى المغربى وما حمله من ثراء بفضل الصور الجديدة التى اتخذت منبعاً ترتوى منه فنون الاسلام فى المغرب فان المسجد الجامع بقرطبة أخذ يشع تأثيراته فى مجالات بعيدة فأدركت تأثيراتــه جنوبى فرنسا ، اذ نراه فى بعض آثارها (١) ، وأصاب هذا التأثير بعض عمائر المغرب (٢) ومصر (٣) •

لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمــر بن الخطاب من مشاطــرة الروم فى كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق وغيرها مما أخذوه صلحاً ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التى كانت داخــل مدينتها تحت السور وهى الكنيسة المعروفة بسنت بنجنت St.vincent وابتنوا فى ذلك الشطر مسجداً جامعاً لهم أسس قبلته حنش الصنعانى وأبو عبد الرحمن الحبلى ، وبقى الشطر الآخــر بأيدى النصارى ، وهدمت سائر الكنائس بحضرة قرطبة • وقنع المسلمون بما فى أيديهم الى أن كثروا وتزايدت عمارة قرطبة ونزل بها أمراء العرب من جند

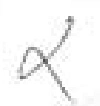
---

(١) انظر مقالنا « اثر الفن الخلافى بقرطبة فى العمارة المسيحية باسبانيا » بالمجلة ، العدد ١٤ فبراير ١٩٥٨ ص ٧٣ — ٨٨ •

(٢) يبدو هذا التأثير القرطبى فى الطابع الذى اتخذه نظام بلاطات المساجد المغربية المتجهة عموديا على جدار القبلة ، وفى عقود محاريبها ، وفى تعدد القباب على اسكوب المحراب ، وفى نظام المآذن ، وفى الصور التى اتخذتها العقود والقباب وفى الزخرفة الهندسية والنباتية • وقد بدأت التأثيرات القرطبية تغزو المغرب منذ عهد الادارسة بفاس • حيث انشئوا جامع القرويين ، فان مئذنته الحجريــة التى مازالت قائمة فى وقتنا هذا والتى اضيفت اليه عام ٩٥٥ م تتوافر فيها صفات المئذنة القرطبة التى اقامها الامير هشام بن عبد الرحمن الداخل بجامع قرطبة انظر Terrasse فى كتابه L'art Hispano Mauresque ص ٢١٥ — ٢١٦

(٣) انظر مقالنا : بعض التأثيرات الاندلسية فى العمارة المصرية الاسلامية المجلة العدد ١٢ ديسمبر ١٩٥٧ ص ٨٨ — ١٠٠ •

الشام فى العهد الذى كانت تخضع فيه لخلافة بنى أمية بالمشرق ، فضاق عنهم ذلك المسجد ، وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة ، ليقيموا ظلة يستكنون بها حتى كان الناس يجدون فى الوصول الى داخل المسجد الأعظم مشقة « لتلاصق تلك السقائف وقصر أبوابها وتطامن سقفها حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض (١) » ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى أن دخل الأمير عبد الرحمن ابن معاوية المروانى الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بالمشرق ، فاستوى على امارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة وتمدينت به ، فنظر فى أمر الجامع ، وسامهم بيع مابقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه ، فأبوا بيع ما بأيديهم ، وسئلوا بعد الجد بهم أن يباح لهم بناء كنيستهم التى هدمت بخارج المدينة ، وتعرف بشنت أجلح خارج الأسوار (١) San Ascilo على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به ، فتم الامر على ذلك عام ١٦٨ — ١٦٩ هـ (٧٨٤ — ٧٨٥ م)، فابتنى عبد الرحمن الداخل المسجد الجامع ، وتم بناؤه وكملت بلاطاته، واشتملت أسواره فى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) .



وساهم أمراء بنى أمية فيما بين ٨٥٢ — ٨٨٦ م فى الاضافة اليه أو تجديده وتجميله ثم زيد فيه بعد ذلك زيادات هامة . ويمكننا أن نحدد المراحل التى مر بها بناء المسجد الجامع بست مراحل : الأولى :

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، ج ٢ نشرة كولان وليفى بروفنسال ، ليدن ١٩٥١ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(١) فتح الاندلس Historia de la conquista deEspana تحقيق خواكين جنثالث Joaquin Gonzalez الجزائر ١٨٨٩ ص ٩ — ١٠ — وكذلك انظر مقالنا Al-Sayyid Salem : Cronologia de la Mezquita Mayor de Cordoba, Al-Andalus, fusc. II, 1954.



الشام فى العهد الذى كانت تخضع فيه لخلافة بنى أمية بالمشرق ، فضاق عنهم ذلك المسجد ، وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة ، ليقيموا ظللة يستكنون بها حتى كان الناس يجدون فى الوصول الى داخل المسجد الأعظم مشقة « لتلاصق تلك الشقائف وقصر أبوابها وتطامن شقفها حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض (١) » ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى أن دخل الأمير عبد الرحمن ابن معاوية المروانى الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بالمشرق ، فاستولى على امارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة وتمدينت به ، فنظر فى أمر الجامع ، وسامهم بيع مابقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه ، فأبوا بيع ما بأيديهم ، وسئلوا بعد الجد بهم أن يباح لهم بناء كنيستهم التى هدمت بخارج المدينة ، وتعرف بشنت أجلح خارج الأسوار (١) San Ascilo على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به ، فتم الامر على ذلك عام ١٦٨ — ١٦٩ هـ (٧٨٤ — ٧٨٥ م) ، فابتنى عبد الرحمن الداخل المسجد الجامع ، وتم بناؤه وكملت بلاطاته ، واشتملت أسواره فى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) .

وساهم أمراء بنى أمية فيما بين ٨٥٢ — ٨٨٦ م فى الاضافة اليه أو تجديده وتجميله ثم زيد فيه بعد ذلك زيادات هامة . ويمكننا أن نحدد المراحل التى مر بها بناء المسجد الجامع بست مراحل : الأولى :

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، ج ٢ نشرة كولان وليفى بروفنسال ، ليدن ١٩٥١ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(١) فتح الاندلس Historia de la conquista deEspana تحقيق خواكين جنثالث Joaquin Gonzalez الجزائر ١٨٨٩ ص ٩ — ١٠ — وكذلك انظر مقالنا Al-Sayyid Salem : Cronologia de la Mezquita Mayor de Cordoba, Al-Andalus, fusc. II. 1954.

المسجد زمن عبد الرحمن الداخل والثانية فى عهد الأمير هشام والثالثة فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط والرابعة فى عهد عبد الرحمن الناصر والخامسة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر والسادسة فى عهد الحاجب المنصور بن أبى عامر . وفى هذا العهد الأخير أخذ المسجد الجامع بقرطبة صورته النهائية .

المرحلة الأولى :

كان نصف هذا المسجد الأول مسقفاً ونصفه الآخر صحناً للهواء وكان النصف المسقف أو بيت الصلاة يتميز باشتماله على تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة تمتد على اثنى عشر قوساً تقوم على عمد من الرخام ، سعة البلاط الأوسط منها ٧٫٨٥ م بينما تبلغ سعة كل بلاط من البلاطات الثمانية الأخرى ٦٫٨٦ م ، ويزيد البلاط الاوسط كذلك فى ارتفاعه عن سائر البلاطات . وسقف مسقفه كله كان يتألف من سماوات (١) خشب مسطحة ومسمرة فى جوائز سقفه فيها ضروب الصنائع والزخارف المنشأة من الضروب المسدسة والمؤربى وصنع الفص وصنع الدوائر والمداهن ، وكل سماء منها لا تشبه أختها بل كل سماء منها مكتفية بما فيها من صنائع قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بألوان زاهية مختلفة . وتحت كل سماء منها ازار من الخشب منقوش بآيات قرآنية ، ولم يتبق من هذه الأسقف أى شىء (١) ، وكان يعلو هذه السقف هياكل هرمية تمتد على امتداد البلاطات .

وقد عقد بين العمد الرخامية على أعلى الرأس عقود متجاوزة تقوم مقام الأوتار الخشبية وتربط الأعمدة فيما بينها عقود أخرى

---

(١) اى لوحات خشبية مسطحة بين عوارض مربعة .

(١) استطاع العالم الاثرى فيلا سكيث بوسكو ان يعيد تركيب جزء من سقف البلاط الاوسط بالمسجد كما كان فى عهده الاول .



نصف أسطوانية تحمل الجدران التى تقام عليها السقف ، وتستند هذه العقود الأخيرة على أرجل من الحجر المنجور مما كان سبباً فى ارتفاع السقف الى ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة .

وتستند الأرجل العليا علىمساند تتألف من ثلاثة أو أربعة خصوص متراكبة الواحد فوق الآخر .

ويتناوب فى جميع العقود العليا والدنيا اللون الأصفر الشاحب واللون الأحمر نتيجة لتناوب الحجارة والآجر بحيث يتألف من هذا التعاقب سنجة حجرية وثلاثة صفوف متلاحمة من الآجر الأحمر تؤلف سنجة أخرى ، واكتسب المسجد بذلك مظهراً زخرفياً بسيطاً وفى ذلك تأثيراً بالفن البيزنطى والفن اللومباردى الرومانى . ويتألف العمود من رأس رخامى وبدن وقاعدة رخاميين ، وكان بعض هذه القواعد مدفوناً فى أرضية المسجد والبعض الآخر ظاهراً فوق مستوى سطحها على نحو غير مستقيم . رجميع أعمدة هذا المسجد الأول وتيجانه قديمة أو قوطية تمثل أنواعاً ساذجة ، وقد أعاد المسلمون استخدامها من الكنائس المهدمة . وتشبه هذه التيجان نظائرها الرومانية فى طالقة (١).

ويتوج الجدران خارج بيت الصلاة افريز من الشرفات المثلثة المسننة وتسندها دعائم قوية لا وظيفة لها فى الحق سوى اضفاء صفة القلاع على المسجد ، مادامت صفوف العقود ترتكز مباشرة على جدار القبلة .

وحين يتخذ المرء طريقه داخل بيت الصلاة ماراً بين الأعمدة التى تحمل العقود ، توحى اليه هذه العقود المتكررة المحمولة على عمد

---

(١) طالقة مدينة شرقى اشبيلية كانت مزدهرة أيام الرومان وقد اجريت بها حفائر أثرية أسفرت عن اكتشاف كثير من الابنية الاثرية .

بالطبيعة الحية تحت ظلال فى لون الشفق بحيث تمثل غابة من النخيل ، وينبعث من ضوء الصحن الذى يغشى البصر ضوء شاحب كما يتسلل من شبكات النوافـذ الخارجية خيوط رفعيـة من النور لا تفى باضاءة سقف المسجد ولكنها تعمل على احداث تأثير قوى ناشى من ظـلام خفيف يستثير الرهبة ، وهنا يستشعر المـرء نفسه بعيداً عن نطـاق الحقيقة ، ويظل مستغرقاً مهيئاً للتطلـع الى ماوراء الحس فى صلاة خاشعة مؤدياً لله فرضه ، مقراً لعبوديته حياله ، ولاسبيل الى أن يكون الخلق المعمارى أكثر كمالا مما يوحى به هذا المثـل الدينى فى بساطته وتجرده .

وعهد عبد الرحمن الداخل الى عبد الله صعصعة بن سلام (توفى فى ١٩٢ هـ) صاحب الصلاة بالمسجد بفرش صحن المسجد الجامع بالأشجار . واتبع خلفاء المسلمين وأمراؤهم بعد ذلك هذه التقاليد . ويذكر ابن بطوطة أن فى صحن جامع مالقة أشجـار النارنج البديعـة ويغلب على الظن أن هذا كان سبباً فى تسمية الاسبان لصحون المساجد بأبهاء النارنج Patio delos Naranjos ويذكر منتزر الرحالة الألمانى الذى زار الأندلس عام ١٩٨٤ أن جامع المرية كان مغروساً بأشجـار النارنج وكذلك كان شأن جامع وادى آش وجامع ابن عدبس باشبيلية وجامع القصبة باشبيلية وجامع البيازين بغرناطة وغيرها ...

ونلاحظ أن عناصر بناء المسجد الجامع بقرطبة فى مرحلته الأولى تشف عن أصالة وابتكار فى ابتداع النظام المزدوج للعقود وفى تناوب الآجر والحجارة بسنجات العقود وفى اتخاذ المساند الملفوفة . وليست ازدواج العقود فكرة زخرفية فحسب بل ان لها غاية معمارية ، لرفع سقف الجامع الى ثلاثة أمثاله وذلك لانقاذ الهواء والضوء الى قبلته ، وخاصة أن نظام القباب لم يكن قد استخدم بعد فى مساجد الاسلام . وقد أرجع مؤرخو الفن الاسلامى الاسبانى أصل هـذا الابتداع الى عقود الجسور الرومانية وحاولوا مقارنة نظام العقود المزدوجة بجامع

قرطبة واندماجها فى الأرجل بعقود الجسر الرومانى بماردة المعروف بجسر المعجزات (de aos Milagros) ، الا أن عقود جسر ماردة متخذة من الآجر بينما تتعاقب فى الدعائم مع الكتل الحجرية فى توافق وانسجام • هذا الى أن وظيفة العقود بجامع قرطبة وحجمها يختلفان اختلافاً بيناً عنها فى جسر ماردة • وفى اعتقادنا أنه لا صلة بين قرطبة وماردة وأن عقود قرطبة عقود ابتكرها مهندسو هذا الجامع وأملت شكلها عناصر البناء وموارده التى كانت فى متناول يديه وخاصة الاعمدة القصيرة التى جمعها من الكنائس المهدمة •

المرحلة الثانية :

أنفق عبد الرحمن الداخل على بناء مسجده مبالغ طائلة فبلغ انفاقه ما يزيد على ثمانين ألف مثقال وقيل مائة ألف ، ويغلب على الظن أنه أرجأ بناء صومعة المسجد الى ما بعد زخرفته فان هذا البناء الرائع بما ظهر فيه من مظاهر الابداع والابتكار لايمكن أن يكون قد استغرق عاماً واحداً كما يقول المؤرخون • فقنع الأمير عبد الرحمن بأحد أبراج القصر المجاور للمسجد من جهته الغربية ليقوم مقام صومعة الجامع حتى يتهيأ له بناؤها فيما بعد ، ولكن الموت أدركه قبل اتمام المسجد فأكمله ابنه هشام من بعده (٧٨٨ — ٧٩٦) من خمس فىء أربونة ، وذلك بأن زاد فيه صومعة بلغ ارتفاعها أربعين ذراعاً الى موضع الأذان أى ما يقرب من عشرين مترا ، وبنى بآخر المسجد سقائف لصلاة النساء وأمر ببناء الميضأة بشرقى الجامع ، وأقام الجامع على هيئته تلك الى أيام عبد الرحمن بن الحكم • وقد اهتدى دون فيليث هرنانديث مهندس الجامع الى الموضع الذى كانت تقوم عليه الصومعة وأجرى فيه حفائر أثرية أسفرت عن كشف أساس قاعدتها المربعة وطولها ستة أمتار •

المرحلة الثالثة :

ولى عبد الرحمن بن الحكم الامـارة بعد ابيه (٨٢٢ — ٨٥٢) ، وكان شاعراً اديبا بعيد الهمة والغايات ، وهو أول من اتخـذ رسـوم الخلافة وأبهتها ، رتب الدواوين ، وجمل القصور وأجرى اليها المياه ، وشيد الرصيف بسقائفه وساقيته ، وأسس المساجد الجامعة فى جميع أنحاء اسبانيا ، وأنشأ دار الطراز ، ونظم أعماله وأنشأ دار السكـة بقرطبة . وعلى الجملة رفع من شأن مملكته وجعل من قرطبة عاصمة جديرة بالخلافة .

وفى عهده تكاثرت الناس بقرطبة وانتابوها من كـل أوب حتى ضاق عنهم بيت صلاتها وكانت بلاطات المسجد الأقدم تسعاً فأنشأ عبد الرحمن الأوسط حفافيها من ابتدائها شرقاً وغرباً بلاطين زائدين عليها ممتدين معها سنة ٨٣٤ فكمل عـدد بلاطات المسجد أحـد عشر بلاطاً استوسع به المسجد ورفه عن حاضريه ، ووصل هـذين البلاطين فى سقيفتين ووصلهما بالسقائف التى كانت معدة بجوف المسجد الأقدم لصلاة النساء عقد كل سقيفة منها على ١٩ سارية (١) ، وابتنى الأمير عبد الرحمن فى مؤخر الصحن سقيفـة جوفية نظمها بالسقيفتين اللتين ابتناهما حفافى صحنه بشرقيه وغربيه .

وفى سنة ٨٤٨ زاد الأمير عبد الرحمن بن الحكم فى بيت الصلاة أول زيادة أجريت فيه وهى الزيادة الأولى البارزة من بين البنية الأولى التى ابتناها أبو جده عبد الرحمن بـن معاوية الداخـل الى الأندلس ورسم أن يكون ذلك من قبل قبلته فى الفضاء ما بينها وبين باب المدينة الراكب للقنطرة بحيث تكون محدودة من الأرجـل الحجرية الضخام

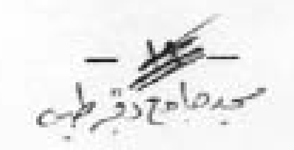
(١) السارية هى عمود من الرخام وجمعها سوارى ومنها عمود السوارى بالاسكندرية .

الماثلة اليوم فى وسط أبهاء المسجد والمتخلفة من جدار محراب جامع عبد الرحمن الأول الى آخر المسجد فى منتهى المحراب الثانى ، وجمع فاخر الآلات لبنائه واستكثر من عدد حذاق الفعلة لاحكامه ووكل ببنيانه أكبر فتيانه الخصيين الأثيرين لديه نصراً وصاحبه مسروراً رغبة فى ايشاك التمام مع احكام الصنعة ، وأشرف له على ذلك أيضاً محمد بن زياد قاضى قرطبة وصاحب الصلاة بها . ويبلغ طول زيادة عبد الرحمن ٥٠ ذراعاً وعرضها مائة وخمسين وعدد سواريها ثمانين ساريه . اذ مد عبد الرحمن الصفوف العشرة للعقود التى تؤلف احدى عشر بلاطاً على ثمانى مجموعات من العقود بحيث بلغ عمق هذه الزيادة جوفاً ٢٦ متراً .

ولا تختلف هذه الزيادة فى نظامها وعناصرها المعمارية عن بيت الصلاة الأقدم الا فى المساند الملفوفة التى تنبت منها العقود بالطابق الأدنى اذ تقتصر على بروز محدب . والعمد فى هذه الزيادة تعوزها قواعد وكلها منقوله من أبنية قديمة وكذلك شأن تيجانها فيما عدا بعض التيجان الاسلامية نخص بالذكر منها الأعمدة الأربعة التى كانت تلتصق بعضادتى المحراب الثانى ، الذى هدم عند زيادة الحكم للجامع . وقد احتفظ الحكم المستنصر بهذه الأعمدة فى محرابه القائم فى وقتنا هذا .

وفتح فى بيت الصلاة بابان فى جانبى المسجد الشرقى والغربى تبقى منها البابان الغربيان : باب سان استيبان (باب الوزراء) وباب دى لوس ديانيس (باب الأمير) فى حين هدم البابان الآخران عند زيادة المنصور لبيت الصلاة من جهته الشرقية على النحو الذى سنشرحه فيما بعد .

وأخص ما يميز زيادة عبد الرحمن الأوسط هى أن مساند العقود السفلى تتخذ حلية محدبة الشكل تعتبر أول صورة للمساند الملفوفة التى أخذت منذ ذلك الوقت فى التطور والتعقيد الى أن أصبحت مؤلفة من ثلاثة فصوص زمن الأمير محمد الذى رمم عقود بيت الصلاة



بمسجد عبد الرحمن الأول ، فأزاح عللها وبالغ فى اتقانها وأعادها الى أول نشأتها • وتطورت هذه اللفائف فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم بلغت أقصى مراحل تطورها زمن الحكم المستنصر ، فازدوجت وأصبحت زخرفية بحتة •

مات الأمير عبد الرحمن الأوسط وقد بقى عليه فى هذه الزيادة بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة أتمها ابنه الأمير محمد سنة ٢٤١ هـ فاستوفيت الكمال فى أيامه اذ استوعب طروز المسجد وأوثق أبوابه وأقام المقصورة فيه عام ٢٥٠ هـ وكان أول من اتخذها هنالك من خلفاء بنى أمية • ويعقد باب سان استيبان نقش كوفى يشهد بهذا الاصلاح نصه « بسملة ••• أمر الأمير أكرمه الله محمد بن عبد الرحمن ببنيان ما حكم به من هذا المسجد واتقانه رجاء ثواب الله عليه وذخره به ، فتم ذلك ••• فى سنة احدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه • مسرور و [نصر فتياه] » •

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال فى الجامع ووضع فيه الأموال الموقفة لغياب المسلمين ، وأمر بتجديد السقاية واصلاح السقائف • ويغلب على الظن أن بيت المال هذا كان يشبه بيت المال بجامع دمشق الذى ما يزال قائماً حتى اليوم وكذلك « قبة الخزانة » بجامع حماة وحمص ومنبج المقامة فى وسط الصحن • ثم زاد أخوه الأمير عبد الله بن محمد ساباطا معقوداً على حنايا ، أوصل به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ثم أمر بستارة من آخر هذا الساباط الى أن أوصلها بالمحراب ، وفتح الى المقصورة باباً كان يخرج منه الى الصلاة فلا يراه أحد فى مجيئه ولا انصرافه ولايتكلف له مؤونة تيام ولا ارصاد خروج • فكان أول من اتخذه من خلفاء بنى أمية بالأندلس ، فاتبع سبيله فيه كل من جاء بعده منهم •

المرحلة الرابعة :

كانت الصومعة القديمة التى بناها هشام قد تصدعت ، وكان بيت الصلاة بعد زيادة عبد الرحمن الأوسط قد ازداد عمقاً ، وأصبح الصحن ضيقاً يتناسق واتساع الجامع • وكان فى مقدور الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يرمم المئذنة اولا أنه رأى صغرها بالنسبة للمسجد الجامع بعد اضافته واتساعه ، فأمر سنة (٣٤٠ / ٩٥٠ م) ببناء صومعة أخرى عظيمة تتفق وجلال الخلافة ، فجمع لها عرفاء المهندسين وأحضر لها الحجارة الضخمة على عجل . وشرع الخليفة فى بنائهـا بعد أن هدم السور الشمالى للمسجد فى نفس الوقت الذى هدم فيه صومعة هشام ، ومد السقيفتين الجانبيتـين شرقى وغربى الصحن وأوصـل طرفيهما الشماليين بسقيفة شمالية ، بحيث أحدث ما يشبه فناء الكنائس تحيط به البوائك من جهاته الأربع • وقد حفر أساسها حتى بلغ الماء ، وأتم بناء الصومعة الجديدة فى ثلاثة عشر شهراً ، وكانت الصومعة الاولى ذات مطلع واحد فصير الناصر لصومعته مطلعين ، وفصل بينهما بالبنـاء فلا يلتقى الراقون فيها الا بأعلاها • وكان لكل مطلع منها مائة وسبع أدراج ، ونصب فى أعلى الصومعة سفوداً ركبت فيه ثلاث تفافيح تغشى النواظر بشعاعها وتخطف الأبصار ببريقها : السفلى والعليا مفروغتان من الذهب والوسطى من الفضة ، وفوق كل تفاحة منها سوسانة مسدسة من الذهب المحض ، وكان ارتفاع كل تفاحة ثلاثة أذرع ونصف • وكان طول كل جانب من قاعدتها المربعـة ٨٫٤٨ م وكان نظـام بنائها على أساس كتلتين من الحجارة موضوعتين بعرضهما بين كتلة طويلة طولها ١٫٥٠ × ٠٫٧٠ م • والواقع أن الجزء الداخلى من المئذنة لا يعـدو أن يكون ازدواجاً لمئذنة هشام • وقد أثار هذا الابتكار اعجاب مؤرخى العرب فعبروا عن هذا الاعجاب فى مدوناتهم التاريخية ، وسبب ذلك انقسام المئذنة الى قسمين مستقلين يفصلهما جدار مشترك ويوحدهما

سطح علوى ، وتدور المراقى فى كل جزء منهما حول دعامة مركزية ، ولكل منها باب ، واحد يطل على الصحن والآخر يفضى الى الطريق الخارجى .

ولقد أصيبت هذه المئذنة عام ١٥٨٩ بأضرار فادحة على أثر زلزال عنيف أحدث شقاً فى بيت المؤذن وجزءاً من الصومعة نفسها ، وآذنت الصومعة بالانهيار فعمد المهندس القرطبى هرنان رويث بين عامى ١٥٩٣ — ١٦٥٣ الى ملأ الفراغ الداخلى بالبناء وأحاط الجدران الخارجية بغلاف من الحجارة لتقوية القاعدة حتى يتيسر لها حمل الجسم العلوى الذى توجها به وهو جسم من نفس أسلوب الجزء العلوى الذى يتوج الخيرالدا باشبيليه . وقد استطاع مهندس جامع قرطبة دون فيليث هرنانديث أن يكشف عن جدران الصومعة الاسلامية كما كانت فى العهد الاسلامى ، وهو التصميم الفريد الذى نشهد فيه نظام الدرج المزدوج الذى حدثنا عنه الأدريسى وابن عذارى وابن بشكوال . ولم يتبق من المئذنة سوى جزء ارتفاعه ٢٢ متراً بينما حفظ من الدعيمتين المركزيتين ما يبلغ ٢٦ متراً . وكانت أسقف الادراج تتألف من قبوات صغيرة مربعة متعارضة متصلة فيما بينها ولكنها تتدرج فى الارتفاع كلما ارتفعنا ، وكان يفصل بين كل مجموعة والاخرى عقود متجاوزة بارزة ، وكانت القبوات مجصصة مدهونة باللونين الأبيض والأحمر تزينها زخارف هندسية .

وكان الجدار المطل على بيت الصلاة يزدان بثلاثة صفوف من النوافذ المزدوجة فى حين كانت تزدان الجدران الأخرى بصفين من نوافذ ثلاثية الفتحات تحيطها عقود متجاوزة . وكان يعلو جدران الصومعة افريز من عقود صماء قائمة على عمد صغيرة ، ويكلل الصومعة شرفات مسننة . وقد استطاع العالم الأثرى دون فيليث هرنانديث بفضل أبحاثه فى المئذنة أن يهتدى الى نوافذ ، عقودها متجاوزة للغاية ،

يزنيها فى محيطاتها شريط بارز . وتسنيج (١) هذه العقود كامل يشع من مركز يقع على خط مناكبها ويحيط بسنجاتها التى يتعاقب فيها اللون الأحمر والأبيض فصوص .

وقد اتخذت مئذنة الناصر فيما بعد أنموذجاً للمآذن الأندلسية المغربية ، وكانت على حد قول ابن بشكوال : « لا تعدلها صومعة أخرى » ، وكانت ترفع فى أعلاها الشموع عند الاحتفال بليلة القدر ، وفى ذلك يقول أبو محمد ابراهيم ابن صاحب الصلاة الولبنى : « والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود ، وعرضت عليها عرض الجنود ليجتلى طلاقة روائها القريب والبعيد ويستوى فى هداية ضيائها الشقى والسعيد ، وقد قوبل منها مبيض بمحمر وعورض مخضر بمصفر ، تضحك ببكائها ، وتبكى بضحكها ، وتهلك بحياتها وتحيى بهلكها » .

ولم تقتصر أعمال عبد الرحمن الناصر على هذا الحد بل تجاوزته الى أعمال الاصلاح والترميم . فقد كان جدار واجهة بيت الصلاة قد تصدع بسبب الدفع المستمر الذى تقوم به العقود ، فقام بترميمه ، وبنى واجهة أخرى ملتصقة بالجدار القديم ، وأصلح باب سان استيبان وأقام عليه ظلة تتكىء على مساند ملفوفة من نفس مساند واجهة بيت الصلاة . وعلى هذه الواجهة بجوار المدخل الى البلاط الأوسط نقش تاريخي فيه « بسملة ... أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاه ببنيان هذا الوجه واحكام اتقانه تعظيماً لشعائر الله ومحافظة على حرم بيوته التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر مع بقاء

---

(١) تسنيج من سنجة وجمعها سنجات . والسنجات هى الكتل الحجرية التى يتألف منها العقد المقوس فى البناء .

شرف الأثر وحسن الذكر فتم ذلك بعون الله فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلثمائة على يدى مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر • عمل سعيد بن أيوب » •

المرحلة الخامسة :

اهتم الخليفة الحكم المستنصر منذ خلافته بتوسيع بيت الصلاة بعد أن ضاق بمصليه ، اذ اتسع نطاق قرطبة وكثر أهلها وتبين الضيق فى جامعها ، فعهد الى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى بالنظر فى سوق الصخور ، ورسم على أن تكون الزيادة بمد جميع البلاطات جنوباً على اثنى عشر عقداً ، وأقام على مدخل البلاط الأوسط من هذه الزيادة قبة كبرى مخرمة يبدو أن الغرض منها كان لادخال الضوء كما أقام قبة أخرى عليه فى أسطوان المحراب الجديد عام ٣٥٤ هـ وأحاط هذه القبة الأخيرة بقبتين جانبيتين تؤلفان معها ما يشبه المجاز فى الكنائس • وقد قلد مهندس الحكم فى نظام هذه الزيادة نظام المسجد الجامع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس ، ففيهما نلحظ نظام البلاط الأوسط الذى تعلو مدخله قبة البهو (ويعادلها درجاته تسع مركباً من ست وثلاثين ألف وصلة مصنوعة من أكارم الخشب • وجملة القول أن زيادة الحكم زودت الجامع بتناسقه وايقاع أجزائه وعظمته وذلك باقامته المقصورة وتتويجها بثلاث قباب وتوسط المحراب واجهة المقصورة بحيث يكتنفه عقدان متماثلان الأيمن به مشرع يؤدى الى الساباط والأيسر يفضى الى مخزن الجامع •

القباب : قباب جامع قرطبة قوامها هيكل من الضلوع المتقاطعة فيما بينها بحيث تؤلف أشكالا نجمية تقوم فى وسطها قبيبة مفصصة ، وقد كسيت هذه الضلوع من أعلاها بالبناء وطبقت فيما بين الضلوع زخارف جميلة ، وسقفت من أعلى بالقراميد • وقد بحث كثير من مؤرخى الفنون الاسلامية فى أصل القباب ذات الضلوع المتقاطعة والنظرية السائدة هى

القائلة بأنه مشرقى ، وليس هناك مجال للشك فى أن قباب جامع قرطبة ويقصد بها القباب الأولى ذات الضلوع التى ظهرت فى المغرب الاسلامى كانت ابتكاراً ابتدعه مهندس الخليفة الحكم المستنصر ، فان قباب أشبط أو أخبط التى يعتقد أنها الأصل الذى احتذته قباب قرطبة ترجع الى عصر متأخر كثيراً عن قباب قرطبة اذ أنها ترجع الى سنة ١١٩٣ م فى حين لاتتجاوز عباب قرطبة القرن العاشر . وكذلك ترجع قبوات الضلوع بجامع أصفهان الكبير الى القرن الحادى عشر وتعرض نظاماً أوليـاً للضلوع المتقاطعة تشبه الى حد ما القباب القرطبية ، ولا يمكن مع ذلك أن تكون قد اتخذت أنموذجاً لقباب قرطبة ، ويعتقد الأستاذ لامبير بحق أن أصول قباب قرطبة وقبوات أرمينية لابد أن تكون واحدة ، وأنها قد تكون فى احدى المقاطعات البيزنطية أو الساسانية بآسيا ، واستطاع أن يلاحظ الشبه القوى بين قباب جامع قرطبة وقبـة المحراب بجامع الزيتونة بتونس على الرغم من أن ضلوعها المشعة من مركز القبة لـم تصل بعد الى المرحلة التى تنفصل فيها عن غطاء القبة ، وان كانت فى الوقت نفسه أكثر بروزاً من ضلوع قبة المحراب بجامع القيروان .

وتمتاز قبة الضوء ، أو القبة المخرمة الكبرى على حد تسمية ابن النظام لها ، بتعدد نوافذها ، اذ يبلغ عددها ست عشرة نافذة ، أربـع فى كل جانب من جوانب قاعدتها ، عقودها يتناوب فيها المتجاوز وذو الفصوص الثلاثة ، ووظيفة هذه القبة انقاذ الضـوء الى بيت للصلاة فسيح .

وقد انتقل نظام التقبيب القائم على تقاطع الضلوع من قرطبة الى طليطلة ، فنراه ممثلاً فى صور مختلفة بمسجد با بمردوم ، ومن قبابه ما يمثل شكلا رباعياً منحرفاً ذا أقطار بحيث يبدو كأنه قبوتان من الطراز القوطى احداهما داخل الأخرى ومنها مايبدو على شكل مثمن ، ومنها ما يقلد تقاطع القبة المخرمة الكبرى بجامع قرطبة . ثـم انتشر استعمال القباب ذات الضلوع منذ ذلك الحين انتشاراً كبيرا يشهد بـه



ذلك العدد الهائل الذى نراه فى الكنائس المسيحية بطليطلة ، مثل قبة مصلى بيلين فى دير سانتاق وقبة مسجد الدباغين « لاس تورنيرياس » وكانت قبة مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة قائمة على الضلوع ، وظل استخدامها كذلك حتى ظهرت القباب المقرنصة فى عهد دولتى المرابطين والموحدين • ومن قباب قرطبة وطليطلة انطلقت التأثيرات وتغلغلت فى العمارة الرومانية الاسبانية والفرنسية ، فطغت على نظـام التقبيب المصلب فى المزان بقشتالة وقبوة مصلى توريس دل ريو بنافاره وبرج دير موساك وقبوة أولورون وأوسبيتال سان بليز بفرنسا •

العقود المفصصة والمتشابكة : شـاع استخدام العقد الثلاثى الفصوص « قسى صناعة القرط » فى زيادة الحكم المستنصر ، وركبت عليها « نحور مستديرة ناتئة بينها ضروب صناعات الفص بالمغرة » ، بحيث تألفت شبكة من العقود وقد أدت هذه الفكرة الى ابتداع نظام معمارى معقد ، فان تشابك العقود كان من شأنه أن يضفى على البناء روحاً من الجمال والوثاقة فى آن واحد ، فأقيمت قباب الجامع عـلى شبكات من هذه العقود المفصصـة والمتداخلة ، وبذلك ضمـن توزيع الضغط على سائر الأركان بعد أن ارتبطت أجزاء العقود فيما بينها •

المحراب : يعد محراب جامع قرطبة أجمل ما فيه ، فقد اهتم بـه مهندس الحكم باعتباره أنبل مكان بالجامع وهو الذى يحدد اتجاه القبلة، والذى أقيمت القباب على اسكوبه وبلاطه ، « فقوسه أحكـم تقويس ووشمه بمثل الطواويس حتى كأنه بالمجرة مقرطق وبقوس قزح ممنطق ، وكأن اللازورد حول وشومه وبين رسومه نتف من قوادم الحمام أو كسف من ظلل الغمام » •

وعلى واجهته سبع عقود ثلاثية الفصوص مزججة دقيقة التكوين والزخرفة يعلوها افريزان بين بحرين من الفسيفساء المذهب عـلى أرض الزجاج اللازوردى ، وتحت هذه العقود افريزان آخران • وعلى

رأس المحراب خصة من الرخام مشبوكة محفورة منمقة تشبه القوقعة المقلوبة • ويؤزر المحراب من واجهته لوحتان جانبيتان مـن الرخام ، حفرت فيهما توريقات وتشجيرات غاية فى الروعة والجمال •

الساباط : وأقام الحكم المستنصر مشرعـاً الى مصلاه بالمسجد أوصله بساباط يربط بين المسجـد والقصر المجاور • ويبلـغ عرض الساباط أربعة أمتار ونصف ، ويمتد بطول جدار القبلة ويتألف مـن طابقين الأدنى تقطعه جوفة المحراب والأعلى يمتد من أول الجدار الى آخره ، وينقسم الى خمس غرف متصلة على جانبى المحراب بحيث تتفق وعدد بلاطات الجامع ، ويفصل بين هذه الغرف ثمانية أبواب • وتعلو هذه الغرف المتصلة فى الطابق الأدنى قبوات نصف أسطوانية •

وعلى عقد المشرع الى الساباط نقش كوفى نصه : « الملك لله على انهدى وصلى الله على محمد خـاتم الأنبياء ، أمر الامـام المستنصر بالله عبد الله أمير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبـه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بعمل هذا المشرع الى مصلاه فتم بعون الله بنظر محمد بن تميلخ وأحمد بـن نصر وخالد بن هاشـم ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب الحمد لله » •

المرحلة السادسة والأخيرة :

وفى سنة ٣٧٧ هـ شرع المنصور فى زيادته بالجامع وذلك باضافة ثمانى بلاطات على طوله كله من جهته الشرقية عندما زاد عدد السكان بقرطبة على أثر وفود قبائل البربر من العدوة وافريقية ، وحين ضاق المسجد الجامع عن حمـل مصليه • وكان السبب فى اختياره للجهـة الشرقية ، اتصال الجانب الغربى بقصر الخلافة واقتراب الجهة الجنوبية التى اعتاد خلفاء بنى أمية الزيادة منها من نهر الوادى الكبير • وقصد ابن أبى عامر فى هذه الزيادة المبالغة فى الاتقان والوثاقة دون الزخرفة،

ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ماعدا زيادة الحكم . ولتحقيق هذه الزيادة نزع ملكية الدور المجاورة للجامع من جهته الشرقية وعوض أصحابها منها بالمال والعقار . ودام العمل فى زيادة المنصور سنتين ونصفاً وخدم فيه بنفسه . وذكر ابن بشكوال أنه أحضر أعلاج النصارى مصفدين فى الحديد من أرض قشتالة وغيرها للمساهمة فى البناء ، وذكر القشقندى فى رسالته أن زيادة ابن أبى عامر من تراب نقله النصارى على رؤوسهم مما هدم من كنائس بلادهم . كما ذكر أيضاً أن ثريات الجامع من نواقيس النصارى . ويغلب على الظن أن المنصور أحضرها من كنيسة شنت ياقب بكومبو ستيلا فى غزوته الثانية والأربعين لجليقية عام ٣٨٧ هـ ، اذ هدم جيشه مصانع المدينة وأسوارها وكنيستها وعفى آثارها ، « ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه ، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن لم تكن بالأمس » .

ولم ينس المسيحيون عمله هذا فظلت ذكراه عالقة بأذهانهم حتى اذا ما فتح فرنادو الثالث قرطبة ، أمر المسلمين بدوره بحمل نواقيس شنت ياقب الى كومبوستيلا على ظهورهم .

١٩

أصبح للمسجد بعد زيادة المنصور تسعة عشر بلاطاً ، ولذلك فقد المسجد تناسقه وتعادل أجزائه ، اذ أصبح بلاط المحراب الذى كان يؤلف محور بيت الصلاة لتوسطه له متطرفاً . وفتح المنصور فى الجدار الشرقى لبيت صلاة المسجد ثغرات واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم وتخلف عن ذلك صف كبير من الدعائم المطولة وبقايا الأبواب الشرقية لزيادة الحكم . وفتح المنصور ثمانية أبواب فى الجدار الشرقى للمسجد بصورته النهائية وهو نفس عدد الأبواب النافذة الى بيت الصلاة فى الجدار الغربى فأصبح لبيت الصلاة ستة عشر باباً ، يضاف اليها بابان جانبيان ينفذان الى الصحن ، وثلاثة أبواب فى الجدار الشمالى . وجميع هذه الأبواب ملبسة بالنحاس

الأصفر مخرمة تخريما عجيباً بديعاً يعجز البشر ويبهرهـم ، وفى كل باب حلقة فى نهاية الصنعة والحكمة .

تحويل المسجد الى كاتدرائية :

ظل المسجد بعد زيادة المنصور على صورته تلك بقية عهد الحكم الاسلامى فلم تضف اليه أى اضافة اذا استثنينا أعمـال التجديد التى قام بها المرابطون والموحدون . ولما سقطت قرطبة عـلى يدى فرناندو الثالث عام ١٢٣٦ نصر الأسقف دى أوسما المسجد تحت اسم العذراء، فسمى بكنيسة سانتاماريا الكبرى . ومنذ ذلك الحين أخذ مظهر الجامع يتحول شيئاً فشيأ الى صورته الحاضرة . وفى سنة ١٣٧١ أقام ملك قشتالة دون انريكى الثانى المصلى الملكى المعروف بمصلى سان فرناندو بجوار قبة الضوء فى اضافة الحكم . وقد غطيت جدران هـذا المصلى بزخارف مدجنة محفورة فى الجص لاتختلف فى شىء عن زخارف قصر الحمراء والقصر باشبيلية ، ثم أقيمت عليه قبوة مقرنصة تتقاطع فيهـا الضلوع البارزة على مثال ضلوع قباب المسجد ، ويعتقد العالم الأثرى دون ليوبولدو توريس بلباس أن هذه القبوة تشبه احدى قباب جامع القصبة باشبيلية الذى اندثر منذ أمد بعيد . وينسب الى هـذا الملك الزخارف المدجنة فى الباب الرئيسى للمسجد ، المعروف بباب الغفران .

ويلاحظ أن الاسبان أظهروا حتى هذا العهد احتراماً كبيراً للجامع رغم تحويله الى كنيسة وقنعوا بتغيير ما يكفى لاقامة شعائر دينهم ، ولكن منذ القرن الخامس عشر أخذت بعض التغييرات الأساسية تشوه بينة المسجد ، ففى سنة ١٤٨٩ هدم الأسقف انييجو مانريكى عقـود وأعمدة البلاطات الخمسة الممتدة طولا من مصلى فيلافسيوسا حتى جدار الجامع الغربى . وأسس جدارين طوليين رغبة فى عمـل مجاز يغطيه سقف خشبى قائم على عقود قوطية . وفى سنـة ١٥٢٣ شرع الأسقف دون ألونسو مانريكى فى هدم جزء كبير من زيادة عبد الرحمن

الأوسط والمنصور لاقامة كاتدرائية قوطية الطراز فى قلب الجامع . وعارض المجلس البلدى بقرطبة وبعض أعيانها فى هذا المشروع الذى كان من شأنه هدم الوحدة المعمارية لأثر من أجمل آثار العالم ، وعرض الأمر على شارلكان فوافق على هدم مايلزم لبناء الكنيسة دون معاينة الجامع . ولما مر بقرطبة عام ١٥٢٤ بمناسبة زواجه فى اشبيلية بدنيا ايزابيلا البرتغالية ورأى الجامع أخذ يمتع بصره بجماله وشاهد بيت الصلاة مغروساً بغابة من النخيل النباتى قوامها أعمدة لايدركها البصر : تقوم عليها عقود تعلوها عقود أخرى مما يولد احساساً بالطبيعة الحية . ورأى أعمال التخريب تألم وقال موجهاً كلامه الى فراى خوان أسقف طليطلة والى أعضاء المجلس الكنسى عبارته المشهورة : « لو كنت قد علمت ماوصل اليه ذلك لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم لان ما بنيتموه موجود فى كل مكان وما هدمتموه فريد فى العالم » .

ثانياً — أهم المساجد الأندلسية الأخرى

المسجد الأموى الجامع باشبيلية :

بناه القاضى عمر بن عدبس سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ / ٨٣٠ م) بأمر الأمير عبد الرحمن الأوسط . وفى المتحف الاهلى للآثار بمدينة اشبيلية بدن عمود من الرخام الرمادى ارتفاعه ١٧ر٣م وقطره ٤٢ر م فيه نقش كوفى قديم حفر حفراً أشبه شىء بحز السكين نصه : « يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدى الآمر ببنيان هذا المسجد على يدى عمر بن عدبس قاضى اشبيلية فى سنة أربع عشرة ومئتين وكتب عبد البر بن هرون » وقد قرأ نفس هذا النقش ابن صاحب الصلاة مؤرخ دولة الموحدين ، مع تحريف بسيط فى مدونته عن اشبيلية فى عهد الموحدين ، وذكر أنه « وجد فى السارية التى فى البلاط الثانى

من جهة الشرق المقابل لمحراب جامع العدبس » ويعتبر هذا النص على حد قول توريس بلباس أقدم نقش عربى معروف فى اسبانيا .

ويذكر الحميرى صاحب الروض المعطار أن بيت الصلاة يشتمل على احدى عشرة بلاطة تتجه عمودياً على جدار القبلة ، وفى هذا يشبه جامع قرطبة بعد الزيادة الأولى لعبد الرحمن الأوسط ، ويغلب على الظن أن البلاط الأوسط كان أكثر ارتفاعاً من بقية البلاطات ، وقد ذكر ذلك المؤرخ الاشبيلى تيرادو دى ألدانا عند وصفه الجامع قبل هدمه . وكانت مئذنة الجامع تستند على الجدار الشمالى للجامع بحيث تبرز عنه . ويذكر توريس بلباس أن طول جدار القبلة كان يروح مابين ٤٨ : ٥٠ م ولم يكن المسجد مربعاً بل مستطيلا يزيد طوله قليلا عن عرضه . وكان صحنه المعروف اليوم « بصحن البرتقال » مفروشاً زمن المؤرخ الاشبيلى مورجادو فى نهاية القرن السادس عشر بأشجار النارنج ؛ وكانت تتوسطه خصة (١) من الرخام تنبثق منها نافورة .

وظل المسجد منذ بنائه على حالته دون أى زيادة ، ثم أصيب عام ٤٧٢ هـ (١٠٧٩) بزلزال هدم الجزء الأعلى من الصومعة فرممها المعتمد بن عباد فى شهر واحد كما تشهد علـى ذلك اللوحة التاريخيـة التى اكتشفت فى الجزء الأدنى من الجدار الجنوبى للمئذنة . ويغلب علـى الظن أن بناء المسجد قد تأثر بهذا الزلزال ، وكان قد ضاق عن حمل المصلين الذين كثر عددهم باشبيلية فى عهد المرابطين والموحدين . ولعل ذلك كان السبب فى حمل الخليفة أبى يوسف يعقـوب الى بناء مسجد جامع كبير يتسع لحشود المصلين . ومنذ شيد جامع الموحدين ارتفعت الخطبة من جامع عمر بن عدبس سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤) وأزيل منبره من موضعة ثم اندرج ذكره على مر الايـام . الا أنه أعيـد الى القيـام

---

(١) حوض قاعدته منصمة على شكل نصف برتقالة .

بوظيفته فى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور اذ رفع اليه المريد أبـو العباس المرى تقريراً على ما وصلت اليه حالة جامع ابن عدبس مـن تصدع ذكره فيه : « أن جامع اشبيلية القديم قد اختل واعتل من داخله وخارجه ، وأن جوائز المسقف منه قد عفت أطرافها الثابتة على بلاطاته فى الحيطان ، وأن حيطانه من جهته الغربية قد مالت ويخاف على الجامع الهدم » .

ويذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة تأثر بذلك وأنه « أشفق لذلك وأمر البنائين والفعلة من أهل الصناع بتلافيـه ، فحضر العرفاء له ، وأدخلوا تحت أطراف الجوائز ركائن وكعوباً من الخشب وطبقوا عليها بألواح الخشب حتى قويت أصول الجوائز المذكورة وبنوا لـه له أبراجاً من الحجر العادى من جهة حائطه الغربى وقاية له من الميل المرى فيه من الاندفاع وتكون له أنفع انتفاع وسطحوا صحنه بالآجر المحكوك الحسن الصنعة ، وتابعوا أقواسه بالجبس والجيار ، وكشفوا عن سقفه وبنوا ما وهى منها حتى ظهر للعيان الصـلاح فى أحواله وجميع أعماله ، وكان هذا النظر الفاضل من أمير المؤمنين رضى اللـه عنه فى شهر جمادى الأولى من عام اثنين وتسعين وخمسمائة » (٣ مايو سنة ١١٩٥) ومنذ اصلاحه أعيدت اليه الصلاة . ولما سقطت اشبيلية على يدى فرناندو القديس تحول المسجد الى كنيسة تحت اسم سان سلفادور . ثم أصيبت المئذنة فى ٢٤ أغسطس ١٣٥٦ على أثر زلزال عنيف هدم جزءها العلوى . ثم أقيم طابق النواقيس بعد هذا بقليل . ثم هدم المسجد بأكمله فى ١٦٧١ فيما عدا المئذنة ، ووضع حجر الأساس فى الكنيسة الجديدة ودام بناؤها حتى ١٧١٢ . وقد تغير مظهر الصحن فى القرن السابع عشر عنه فى العهد الاسلامى ، وكل ما تبقى من المسجد لايعدو الجزء الأدنى من البرج حتى ارتفاع ٩٫٥٠ م . وطريقة بناء هذا الجزء تشبه نظام بناء قصبة ماردة التى شيدها الأمير عبد الرحمن الأوسط . وقد عثر بين أحجار هذا الجزء على لوحة رخامية كبيرة عليها

نقوش كتابية لاتينية تشهد بأن أحجار المئذنة الاسلامية من أبنية رومانية سابقة يغلب على الظن أنها من أحجار السور الرومانى بالمدينة. وفى داخل الصومعة يدور درج حلزونى عرضه ٨٠ سم حول جسم أسطوانى ضخم . ويماثل هذا النظام برج سان خوان وسنتياجو بقرطبة ، وهما يرجعان الى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط كما يشبه الجزء الادنى من مئذنة ابن طولون الحجرية التى يعتقد أنها من بناء السلطان لاجين فى مطلع القرن الرابع عشر. ويعتقد العالم الاثرى السنيور توريس بلباس أن أصل الأبراج الاندلسية مأخوذ من معمودية جابية بغرناطة .

المسجد الجامع بتطيلة :

أقام هذا المسجد الأمير موسى بن موسى عامل تطيلة وزعيم بنى قسى فى الثغر الأعلى وكان قد استقل استقلالا جزئيا بهذه المنطقة ، وهو الذى زاد فى المسجد الأبيض بسرقسطة عام ٨٥٦ ، وقد فتح روترون كونت مدينة البرش مدينة تطيلة فجأة عام ١١١٤ بعد أن شرع فى ذلك ألفونسو المحارب ، وبقى روترون سيداً على المدينة بعد أن عقد عهداً مع سكانها المسلمين فى أن يبقيهم حولا كاملا أحراراً فى شؤونهم وفى دورهم وفى استخدامهم للمسجد الجامع ، ثم حول المسجد بعد ذلك الى كنيسة . فأقيمت بها الشعائر المسيحية باسم سانتا مارية العظمى ، وفى احتفال خاص حضره عدد من الأساقفة . ثم أقيمت به فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر كاتدرائية . وقد عثر فى أثناء أعمال الاصلاح التى أجريت بها أخيراً على بقايا عناصر معمارية تتعلق بالمسجد الجامع ، ومع أن هذه البقايا قليلة للغاية الا أن قيمتها كبيرة لانها تضىء بعض المشكلات التى أحاطت بالفن الاسلامى فى المنطقة المعروفة بالثغر الأعلى ، وكنا لانعرف منه حتى وقتنا هذا شيئاً الا عن طريق بقايا قصر الجعفرية بسرقسطة . ولكن بقايا جامع تطيلة بعيدة عنه كل البعد اذ تعبر عن فن يمتاز بروعته ويفوق بعظمته الفن القرطبى المعاصر له .

وكل ما عثر عليه منه عدة مساند ذات لفائف وعقود مزدوجة على شكل حدوة الفرس ، وتيجان مزودة بتوريقات تعد غاية فى الروعة والجمال ، ولوحة من الحجر أشبه ما تكون بعضادة الباب بهـا زخارف هندسية قائمة على خطوط معقوفة تتفق والأسلوب الكلاسيكى ، وشرفات مسننة من المرمر • وتزدان المساند المشار اليها ، وتتبع النظام القرطبى على نحو أكثر تطوراً ، بأربـع أو خمس لفائـف مصفوفة فى قوس مقعر تكسوها توريقات نباتية محفورة حفراً مائلا يتوسط سيقانهـا شدخ وتتألف من أوراق ووريدات وفق الأسلوب البيزنطى •

جامع باب مردوم بطليطلة (كنيسة الكريستودى لالوث) أطلق هذا الاسم على المسجد الذى أقيمت عليه كنيسة الكريستودى لالوث نسبة الى باب مجاور له مازال قائماً كان يعرف بالباب المردوم • وكل مانعرفه عن هذا المسجد نقش تاريخى يعلو الواجهة ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد أحمد بن حديدى من ماله ابتغاء ثواب الله ، فتم بعون الله على يدى موسى بن على البناء وسعادة • فتم فى المحرم سنة تسعين وثلاثمائة » (ديسمبر ٩٩٩ — يناير ١٠٠٠ م) • ويؤلف هذه الكتابة قطع من الآجر بارزة على سطح البناء فى افريز يقع بين صفين من الأسنة البارزة • والمسجد صغير لايتجاوز طول الجانب منه ثمانية أمتار مشيد من حجر الجرانيت والآجـر • وكان مسجداً ثانوياً بالمدينة حول الى كنيسة بعد استرداد طليطلة بقليل ، ثم أطلق عليه اسم سانتا كروث ووهبه ألفونسو الثامن لاحدى الجمعيات الدينية ثم أضيف اليه بعد ذلك من جانبه الشمالى الشرقى رأس على هيئة حنية على الطراز المدجن •

ونظام البناء يشبه نظام الكنائس البيزنطية اذ أن تصميمه يتخذ شكل الصليب الاغريقى المدرج فى مربع يتوسطه أسطوان تعلوه قبـة من حولها ثمانية أساطين مقببة • ويعتقد الأستاذ لامبر أن البناء فى

مجموعة يشبه الكنيسة الكارولنجية بجرمينى دى برى على أننا نرى أنه اذا كان المسجد يقترب فى تخطيطه من النظام المصلب فليس هـذا ناشئاً عن تقليد للكنائس البيزنطية أو كما يزعمون من أن هذا المسجد كان كنيسة قوطية ، وانما هو ناشىء من الفكرة التطورية أو الاهتمام القوى بالتناسق والاحترام الشديد للمحراب ، فـان جدران المسجد أقيمت خصيصاً لبناء مسجد يتجه نحو الجنوب الشرقى •

ويتألف المسجد من تسع أساطين تقسمها أربعة أعمـدة تيجانها قوطية قديمة ، وتقوم عليها اثنا عشر عقداً متجاوزة • وتنفتح فى الشمال الشرقى للمسجد ثلاثة عقود متجاوزة تفضى الى البهو تعلوهـا ستة عقود متجاوزة يتناوب فى سنجاتهـا اللونان الأبيض والأحمر نتيجة لتعاقب قوالب الحجر والآجر على نفس نظام عقود المسجد الجامـع بقرطبة • ويحيط بكل عقد منها عقد زخرفى مثلث الفصوص • وقـد تعرضت هذه الواجهة لاصلاحات كثيرة ، أما الواجهة الجنوبية الغربية وهى الرئيسية فتطل على الطريق المؤدى الى الباب المردوم بثلاثـة عقود أخرى فى أعلاها النقش الذى أشرنا اليه ويتفق أسلوبه والتقاليد العراقية الفارسية • والعقد الأوسط مجدد أما العقدان الجانبيان لـه فأحدهما وهو الأيمن متجاوز على نظام عقود المسجد الجامع بقرطبـة والأيسر مفصص • ويعلو العقود الثلاثة عقود متجاوزة وتتقاطع هذه العقود فيما بينها مرتكزة على سبعة مساند بارزة • ويعلو هذا الصف من العقود افريز تشغله شبكة مخرمة من المعينات تتألف من قطع الآجر الموضوعة جانبياً • ونظام التقبيب به قائم على تقاطع الضلوع المتجاوزة فى صور مختلفة ، منها ما يمثل شكلا رباعياً منحرفاً ذا أقطار بحيث يبدو كأنه قبوتان من الطراز القوطى ، احداهما داخل الأخرى ، ومنها مـا يبدو على شكل مثمن ، ومنها ما يقلد تقاطع القبة المخرمـة الكبرى بجامع قرطبة •

. وعقد القبوة التى تتقدم المحراب ثلاثية الفصوص . وكلما تعرض تطوراً رائعاً لقباب جامع قرطبة ، والفارق بينهما أن قباب طليطلة تصور اتجاهاً أكثر نحو الزخوفة وفـن الهندسة وهما ما أولع بهما أهـل الأندلس . فلم يفكروا فيما يمكن أن تؤدى اليه هذه الابتكارات مـن ثورة هائلة فى فن العمارة كما فكر فيها فنانو العمارة القوطية الذين أفادوا من هذه الفكرة ، وزخارف المسجد الخارجية تذكرنـا بزخارف المسجد الجامع بقرطبة فى زيادة الحكم المستنصر سـواء فى تناوب الألوان أو فى شكل المعقود .

(٢) المسجد الجامع بالمرية :

لم تتبق آثار كثيرة للمساجد فى عهد ملوك الطوائف فقد اختفى العدد الأعظم منها مثل المسـجد الجامع بغرناطة الذى بنى مـا بين ١٠١٦ ، ١٠٣٧ . وكل ما تبقى من مساجد هذا العصر لا يعدو بقايـا قليلة ، منها مئذنة جامع المرابطين المعروفـة اليوم باسم برج سـان خوسى بغرناطة وبقايا مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة وبقايا مسجد القناطير بقادس .

ويعتقد العالم الأثرى توريس بلباس أن هذا الجامع قد شيد بعد زيادة الحكم المستنصر لجامع قرطبة بسنوات قليلة ، وأنه كان يتألف من خمس بلاطات ومحراب تخطيطه مربع (طول ضلعه ١٫٩٠ مترا) ، تعلوه قبيبة مفصصة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا . وكان نظام البناء فى جدار المحراب الذى تبقى من المسجـد يخضع للنظـام القرطبى المعروف ، وقوامه تناوب حجرين موضوعين عرضاً مع حجر موضوع طولا ، ونرى هذا النظام فى أعمال عبد الرحمن الناصر بجامع قرطبـة ٩١٢ — ٩٦١ وزيادة الحكم المستنصر (٩٦١ — ٩٧٦) . ونظام المحراب المربع ظهر فى جامع الباب المردوم بطليطلة ومسجد القناطير فى بورتو دى سانتا مرية . وأغلب الظن أن هذا الجامع قـد بنى فى السنوات

الأخيرة من القرن العاشر . أما القبوة المفصصة فنراهـا فيما يزين الفراغ الواقع بين ضلوع قباب المسجد الجامع بقرطبة .

ثم أضاف خيران العـامرى (٤٠٣ — ٤١٩ / ١٠١٢ — ١٠٢٠) الذى ولاه المنصور بن أبى عامر المرية ، البلاطين الجانبيين وكانا أكثر من البلاطات الأخرى اتساعاً كما كان الحال فى جامع قرطبة . ويمكن نسبة الزخرفة الأولى بالمحراب الى هذا العصر . وتتميز هذه الزخرفة بالعقود المدببة الصماء بالأقسام الوسطى . ونرى مثل هذا التخطيط فى زيادتى الحكم المستنصر والمنصور بجامع قرطبة . أما المحارات التى تعلو جوفات الأركان المكشوطة فيمكن مقارنتها بتلك المحـارات التى نشاهدها فى جامع قرطبة .

وينسب الى هذا الجامـع الأول بضعة مسانـد ذات لفائف أو فصوص تشبه مساند واجهة الصحن بجامع قرطبة التى بناهـا عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٦ هـ . ويشف أسلوب القطع المزينة بالزخارف النباتية عن تطور لأسلوب التوريقات الذى نراه بزيـادة المنصور ، ويمكن تأريخها فى القرن الحادى عشر ، وتبدو فيهـا أوراق مبسوطة مقسمة الى أصابـع وغالبـا ما تكثر التموجـات بالساق وتخـلو عادة من الشدوخ والتختيمات المتصلة وانما تقتصر على تختيمات منفصلة . وزخارف التوريقات والتشجيرات تكسو الشريط الأوسط من المسانـد ذات الفصوص تشبه زخارف المساند فى زيادتى الحكم والمنصور بجامع قرطبة وان كنا لا نرى نظيراً للزخارف النباتية التى تكسو جوانب هذه المساند بجامع المرية . ومساند جامع قرطبة تخلو جوانبها من هذا النوع فى حين تشابه زخـارف مساند المريـة بزخارف مثيلاتهـا بالجعفرية بسرقسطة وقصبة مالقة مما يقطع بأنها ترجع الى عهد المعتصم بـن صمادح (٤٤٣ — ٤٤٤ هـ) .

أما العقود الصغيرة الصماء القائمة على عمد بزخارفها القائمة على المراوح النخيلية والفصوص المتصلة بحلقات معقوفة فترجع الى عصر الموحدين ونراها فى المساجد الموحدية مثل جامع الكتبية والقصبة بمراكش .

وقد وصفه منتزر الرحالة الألمانى عام ١٤٩٤ بأنه كان من أجمل وأروع مساجد مملكة غرناطة وكان يتألق بمئات الثريات وكان يضم كنوزاً لا حصر لها ويعمل به من القومة نحو خمسين قيماً وكان عرضه ٤٥ متراً وطوله نحوا من ٧٠٫٦ متراً .

وكانت بلاطاته تتجه عمودياً على جدار القبلة فى انحراف ظاهر . وكان البلاط الأوسط أكثر البلاطات اتساعاً ، وقد أسفر البحث الأثرى عن عدة سنجات عقود من الحجر مطلية باللون الأحمر . وكان عقد المحراب متجاوز بينما تتعاقب فى سنجاته كتلة ملساء وكتلة مكسوة بالزخرفة .

أما الصحن فكان مزروعاً وفقاً لوصف منتزر بأشجار الليمون والبرتقال ، ومفروشاً بالرخام وتتوسطه نافورة للوضوء .

المسجد الجامع بقصبة اشبيلية :

لم يتبق من عمائر الموحدين الدينية فى الأندلس سوى آثار المسجد الجامع بقصبة اشبيلية الذى بناه الخليفة أبو يعقوب يوسف . وكان المسجد الجامع باشبيلية كما سنراه بعد قليل اجابة لجامع قرطبة الذى يعتبر مثالا احتذاه مهندسو جامع اشبيلية . وقد شرع أبو يعقوب يوسف عام ١١٧٢ فى بناء جامع اشبيلية الأعظم وكان محبا للفنون ومولعاً بالعمارة والتشييد . وكانت اشبيلية مدينته الأثيرة الى نفسه ، وحاضرة دولته فى الأندلس أقرب الى قلبه من مراكش عاصمة

امبراطوريته . اذ ولد فى قرطبة وقضى فى اشبيلية جزءاً كبيراً من طفولته وتأثر برقة الأندلس وفتن بسحرها وراقت له مظاهر الثراء التى كان يستتيم لها الأندلسيون ، فتخلى منذ طفولته عن خشونة الموحدين وتقشفهم وأقبل على الترف وانغمس فيه فشيد القصور والمساجد وحرص على تجميل حاضرة ملكه فى الأندلس بكل ما من شأنه التعمير والتمصير . وكان من نتائج ذلك أن انطلقت حركة البناء فى تلك المدينة واتسمت الأبنية الجديدة بطابع الأصالة والجمال اجتمعت فيها البساطة التى تميزت بها عمائر الموحدين مع التعقيد والغلو فى الحشد الزخرفى، وتلك احدى خصائص عمارة الأندلس منذ خلافة الأمويين فى قرطبة حتى عهد ملوك الطوائف .

أمر أبو يعقوب فى ١١٧٢ باختطاط موضع الجامع العتيق فهدمت له الديار داخل القصبة وحضر على ذلك شيخ العرفاء أحمد بن باسة وأصحابه العرفاء البناءون من أهل اشبيلية وجميع عرفاء أهل الأندلس ومعهم عرفاء البنائين من أهل حضرة مراكش ومدينة فاس وأهل العدوة. وكان جامع اشبيلية المعروف بجامع العدبس قد ضاق بأهله فكانوا يصلون فى رحابه وأقبيته وفى حوانيت الأسواق المتصلة به فيبعد عنهم التكبير بالفريضة الأمر الذى دعا أبا يعقوب الى بناء هذا الجامع الجديد توسعة للناس . فأسسه من الماء بالآجر والجيار والجص والأحجار وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطاته تحت مستوى سطح الأرض وجمع له الفعلة وأحضر الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدوة وظل البناء مستمراً حتى كمل بالتسقيف وقارب جامع قرطبة فى الاتساع وكان الناظر على البنائين والعرفاء العريف أحمد بن باسة وصاحب تقييد الانفاق أبو داود يلول بن جلداسن وكان جامع اشبيلية يضم ١٧ بلاطاً تتجه من الشمال الى الجنوب ونعنى بذلك فى اتجاه القبلة كما هو الحال فى بلاطات جامع قرطبة ، وتتسع هذه البلاطات لأربعة عشر أسكوباً ويمكن تقدير اتساعه على وجه التقريب فيما يلى :

١٥٠ متراً فى الطول ، ١١٠ متراً فى العرض • وكان البلاط الأوسط أكثر البلاطات اتساعاً فكان يبلغ ٧٫٧٠ متراً وكذلك كان اتســاع البلاطين المتطرفين ، أما سعة البلاطات الأخرى فلا تعدو ٦٫٤٠ أمتار ويغلب على الظن أن أسكوب المحراب كان أكثر اتساعاً كذلك من الأساكيب الأخرى ومن المرجح أن عقود جامع اشبيلية كانت تستند على دعائم أو أرجل من الآجر على نفس صورة دعائم الصحن • أما العقود فكانت متجاوزة منكسرة بعض الشيء وكانت مخارجها تنطلق من مناكب الدعائـم كما يتجلى ذلك فى عقود الصحن • وكانت أسقف بلاطات بيت الصلاة هياكل هرمية تقوم على سماوات مسطحة بين جوائز السقف • ويغلب عـلى الظن أن قباباً ثلاثة كانت تقوم فوق الأساطين الثلاثة الناشئة من تقاطع البلاطات الكبرى بأسكـوب المحراب ، وأن هـذه القباب كانت من المقرنصات كما فى جامع الكتبية أو على النحو الذى نشاهده فى مقصورة سان غرناندو بجامع قرطبة كما يرجح الأستاذ توريس بلباس • وقد أشار ابن صاحب الصلاة اليها عند قوله : « واهتبل العرفاء واستعرفوا وتحذقوا فى بناء القبة التى على محرابه أعظم الاهتبال فى العمل بصنعة الجبس والأقباء بالبناء ونجارة الخشب بغايـة الاحتفال » • وأقبى العرفاء عن يسار المحراب « ساباطاً فى الحائط يمشى فى سـعة نيه الماشى ، معداً لخروج الخليفة عليه من القصر الى هذا الجامع لشهود صلاة الجمعة ••• وعلى يمين المحراب أقباء فى حائط الجامع معقود بالبناء لكون المنبر فيه عند اخراجه للخطبة وادخاله فيه » •

وكان يدعم الجدران الخارجية دعائم كبيرة ضخمة للدفع مماثـل ما نراه منها خارج الصحن • وظل صحن الجامـع الذى سمى ببهو البرتقال فى عصر مسيحى ، محتفظا بسلامته الى حد كبير حـين هدمت مجنباته الغربية عام ١٦١٨ عند بناء الجوسق المقدس • وكانت تنفتح فى جدرانه الخارجية بالصحن ثلاثة أبواب : واحد فى امتداد محـور بيت الصلاة يعرف اليوم باسم باب الغفران وبابان آخران فى المجنبتين

تبقى منهما باب المجنبة الشرقية وخلفه أسطوان تغطيه قبوة من المقرنصات من نفس طراز قباب جامع مراكش • وتطل على الصحن بوائك من عقود من الآجر متجاوزة منكسرة ويحيط بهذه العقود عقود أخرى بارزة من أرجل العقود الى رؤوسها الأمر الذى يكسب دعائمها الشكل الصليبى •

وما حفظ من الزخارف قليل ومع ذلك فهو بالغ الأهمية اذ يكشف عن ميول الزخرفة الأندلسية المغربية فى عهد الموحدين ، ويقتصر على بعض الزخارف المحفورة فى الجص بالعقد الداخلى لباب الغفران وكذلك على العقد المطل على الصحن فى امتداد هذا الباب ، يضاف اليه قبوة المقرنصات بالباب الشرقى ، وزخارف عقد المدخل المؤدى الى الصحن قوامها أشرطة بارزة ترتسم فيها مستطيلات ومربعات قائمة على رؤوسها ، وهى طريقة بيزنطة الأصل لها نظائرها بجامع قرطبة ومدينة الزهراء ، أما الشريط الأوسط من زخارف هذا العقد فيتألف من سعف النخيل الملساء التى تخلو من السيقان ، يطوقها خطوط محززة وأطرافها تنحنى فى تجعدات وتتلاحم فى تناسق وايقاع • وترسم فى بعضها خطوط لولبية محززة وقد حفرت الزخرفة النخيلية على طبقتين مما يضفى عليها نوعاً من التباين القوى بين الظلمة والنور ، وقد سمى مارسيه هذه الزخرفة باسم « الزخرفة الكثيفة »
وتشبه الى حد كبير زخرفة محراب جامع توزر بتونس وهو مسجد ينخرط فى سلك الفن الأندلسى ويعاصر المسجد الجامع باشبيلية اذ بنى عام ١١٩٤ م •

والعقود المتبقية التى تصل بين الصحن ومجنباته متجاوزة منكسرة تزاوجها أخرى تتخذ نفس صورتها طفيفة فى بروزها ، ولعل النطاق الأدنى للعقد الخارجى كان يتخذ صورته الحالية فى حين كان الداخلى منه مغطى بزخرفة تتألف من حنيات صغيرة مقعرة ومحدبة تكاد تربطها

تجعيدات تتخذ شكل حرف S في التوائها . وهي احدى خواص زخرفة الموحدين وهي ما أطلق عليه باسيه وتراس اسم الشكل الثعباني .

كان جامع اشبيلية يجمع بين صور انشائية وفنية ظهرت في مساجد الموحدين بمراكش وصور أخرى مستوحاة من المسجد الجامع بقرطبة : فقد أخذ من هذا المسجد الأخير مظهره الخارجي كما ورث من جامع قرطبة أيضاً عظمة صحنه بعقوده السبعة في أروقة مجنباته التي تحدد عظم اتساعه بدلا من أربعة عقود في جامع الكتبية بمراكش وجامع تنمال ، واقتبس من جامع قرطبة أيضاً نظام عقوده وأسلوب زخارفه ومظهر الثراء الزخرفي الغالب على جامع اشبيلية يجعل المفارقة بينه وبين مساجد مراكش أشد وأعظم فقد كانت هذه المساجد بسيطة في زخارفها بتأثير مباشر من مذهب الموحدين في التقشف .

وكان أبو يعقوب قد عهد قبيل حملته الى شنترين بالبرتغال عام ١١٨٤ الى واليه باشبيلية واسمه أبو داود يلول بن جلداسن ببناء المسجد الجامع وصومعته (منارته) . ولكنه توفي أثناء عودته من غزوته ، ولحقه أبو داوود فمات بعد ذلك بشهور ، وتعطل بموتهما بناء الصومعة ، وما كاد خليفته أبو يوسف يعقوب يظفر بالبيعة حتى أمر والي اشبيلية الجديد بالاشراف على اتمام مشروع أبيه واكمال بناء صومعة تجاوز في ارتفاعها صومعة جامع قرطبة التي كانت تعد وقتئذ أعظم مئذنة في المغرب والأندلس . وقام أحمد بن باسة عريف العرفاء ببناء الصومعة ولكن المنية عاجلته ، فخلفه على العمارى سنة ١١٨٨ . ثابر العريف الجديد على بناء الصومعة فتم بعد انتصار أبي يوسف يعقوب على جيوش قشتالة في موقعة الأرك في ١٠ يوليو سنة ١١٩٥ ، وارتفعت الصومعة في رشاقة مشرفة على فحص اشبيلية وما يحيط بها من المنطقة المعروفة بالشرف ، وتضم القرى والضياع والمجاشر . وعاد الخليفة وقد استحق لقب المنصور وأمر بصنع التفاحات الأربعة المذهبة

لتكلل الصومعة ، ورفعت فى حضرته وركبت بالسفود البارز فى أعلى قبة الصومعة ثم أزيحت عنها الأغشية التى كانت تغطيها فبهرت ببريقها ولألائها عيون الحاضرين ٠

وظلت الصومعة بجمالها وسموقها ودقة زخارفها وتناسق بنيانها تثير اعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء فقد كانت تمثل للمسلمين تفوق دينهم ودوام حكمهم فى هذه البلاد حتى دالت دولة الموحدين وتقلصت دولة الاسلام فى الأندلس بتقدم حركة الاسترداد المسيحية. فقد سقطت قرطبة عام ١٢٣٦ وحوصرت اشبيلية عام ١٢٤٦ ، وظلت جيوش قشتالة تحاصرها خلال عام ونصف حتى وهنت مقاومتها ونفذ زادها فاضطر أولو الأمر فيها الى اجراء مفاوضات مع الأعداء لتسليم مدينتهم ثم طلبوا منهم أن يترك للمسلمين الحق فى هدم مسجدهم الجامع وتقويض مئذنته ، فأجابهم دون ألفونسو بجملته التى أضحت فى عداد الأمثال : « سأقطع رقابكم جميعاً لو مستم حجراً واحداً منها » ٠

وهكذا رضخ المسلمون لحكمة وامتثلوا صاغرين لأمره وسلموا مدينتهم الحبيبة بمسجدها الجامع وصومعتها ٠ وسقطت اشبيلية فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الذى أطلق عليه القديس لهذا السبب ؛ وسرعان ما تحول المسجد الجامع الى كنيسة سانتا ماريا ، وحول اتجاهه حتى يكون صالحاً للقيام بشعائر المسيحية ٠ وظل المسجد الأعظم على تلك الحال دون أن تلحق به تغييرات هامة فى البناء ، ومع ذلك فقد أضيفت اليه عدة مصليات أهمها المصلى الملكي ، وتلاحقت عليه بعد ذلك أضرار جسيمة على أثر الزلازل فاضطر المجلس الكنسى باشبيلية الى اتخاذ قرار بهدمه لعدم صلاحيته وبناء كاتدرائية أسلوبها قوطى يتمشى وفق الأسلوب السائد فى ذلك العصر ٠ ووضع حجر الأساس فى ١٤٠٢ وبدأت أعمال البناء من الجانب الغربى ولم يبق من مسجد

الموحدين الأعظم الا عدة عقود تطل على صحنه من جهة الشمال والشرق كما أوضحنا ذلك من قبل .

أما الصومعة فقد ظلت فى نفس حالتها التى تركها عليها المسلمون ولم تصب بأى تغيير فى نظام بنائها سوى أنها لم تعد بعد تلك الصومعة التى ينطلق من أعلاها صوت المؤذن فى الفضاء داعياً الى الصلاة ، بل تحولت الى برج للنواقيس ملحق بالكنيسة ، ثم فقدت الى الأبد تفافيحها الأربعة على أثر زلزال حدث عام ١٣٥٥ . وفى سنة ١٤٩٤ زال الجزء الأعلى من الصومعة على أثر صاعقة وسقط جزء كبير منه فى زلزال سنة ١٥٠٤ ، وعندئذ قام المهندس هرنان رويث بتنفيذ مشروعه ببناء برج علوى عام ١٥٥٨ فتم سنة ١٥٦٨ ونصب فى أعلى البناء الجديد تمثال من البرنز يرمز للمسيحية صنعه برتولومى موريل عام ١٥٦٧ بحيث يدور مع الرياح يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار . ومن هنا أطلق عليه جيرالديو giraldillo أو دوارة الهواء وهو اسم مشتق من المصدر Girar أى يدور . ثم ما لبث أن حور هذا الاسم الى جيرالدا Giralda وأصبح يطلق منذ أوائل القرن الثامن عشر على البرج بأكمله ، وبه بلغ الارتفاع الكلى للبرج ٩٣٫٢٥ م منها ٦٩٫٦٥ متراً ارتفاع الجزء الاسلامى منه .

ويكفى لاظهار روعة هذا الجزء الاسلامى أن يلمس الزائر للجيرالدا بنفسه عمارته الصاعدة فى ايقاع ، وزخارفه المحفورة فى الآجر كالمخرمات والموزعة فى تعادل واتزان مع رقة وبساطة تنطقان بهذا التفضيل . واذا كنا نأسف اليوم لضياع الجسم العلوى من الصومعة فاننا نحمد الظروف التى أتاحت بقاء الجزء الأدنى منها ، ولولا بناء هرنان رويث لطابق النواقيس لكانت قد هدمت حتى أساسها كما حدث لكثير من الصوامع الاسلامية التى غنمها المسيحيون فأزالوها من الوجود .

لم يطرأ على الجيرالدا بعد اتخاذها هذا الاسم أى تغيير ولكنها أصيبت بأضرار فادحة سببتها الزلازل والصواعق كزلزال عام ١٨١٩ أو صاعقة عام ١٨٨٤ مما مست الحاجة معه الى اصلاحهـا وتولى ذلك المهندس أدولفو فرناندو كازانوفا • وهكذا وصلت الينا الجيرالدا وقد حفظت لنا ما تخلف من صومعة جامع الموحدين باشبيلية •

كانت الجيرالدا تتألف من طابقين : الاول وهو الجزء الاعظم منهـا ينتهى بالافريز الأفقى الذى تعلوه فتحات النواقيس ، والثانى برج صغير الحجم يعلو البرج الأدنى فى امتداد نواته الداخليـة • وكانت تعلو هذا الطابق بدوره قبيبـة مقرمدة يتوجها سـفود ركبت عليه لتفافيح الأربعة التى تتضاءل فى الحجم كلما ارتفعت فتتناسق تماماً مع القبيبة وتفصح عن ايقاع وتناسق تؤكده رشاقة المئذنة وسموقهـا وتدعمه اتجاهها التصاعدى الـذى يزداد قوة بالتقسيمـات الثلاثية الرأسية لزخرفة المعينات • وتتألف هذه المعنيات من ثلاثـة شبكـات تقوم كل منها على ثلاثة عقود • وليست هذه المعينات فى الواقـع الا امتداداً لهذه العقود فتتقاطع فيمـا بينها لتحدث فى تقاطعهـا هذه الشبكات • ويتفق مظهر البرج الخارجى مع نظامه الداخلى كمـا لو كان مرآة تعكس صورته •

وقاعدة الصومعة مربع طوله ١٣٫٦٥ متراً بداخله نواة مربعـة الشكل طولها ٦٫٢٥ م • يدور حولها طريق منحدر صاعد مؤلف مـن ٣٥ مقطع، وتعلوه قبوات متعارضة صغيرة متصلة ، خمسة منهـا فى كل مقطع • وتشغل النواة الداخلية للبرج سبعة غرف مربعـة الشكل الواحدة فوق الأخرى ، الخمسة السفلى منها مسقوفة بقبوات نصف كروية أما القبوتان العلويتان فمتعارضتان ، ويتراوح ارتفاع كل غرفة مابين ٦٫٣٠ متر ، ٤٫٩٠ م •

ويفصح البناء الداخلي للصومعة عن احكام لفن البناء ومعرفة دقيقة بأصول العمارة . وقد لعبت الصومعة دوراً هاماً في فنون المغرب والأندلس ضمنها ولد ذلك النوع من الزخرفة المحتشدة التي عرفت في قصور الموحدين كما عرفت فيما بعد في قصور بني نصر بغرناطة وبني مرين في مراكش وفي بعض كنائس المدجنين . وهكذا كانت الجيرالدا مصدراً خصباً أثر في كافة أنواع العمارة الاشبيلية في العصر الاسلامي والمسيحي على السواء ، بحيث يصعب علينا أحياناً التفرقة بين بعض الآثار الاسلامية البحتة وغيرها من آثار المدجنين .

وزخارف الجيرالدا تعبر عن فن يختلف اختلافاً بيناً عن فنون مراكش المعاصرة له ، فقد أثرتها عناصر أندلسية توافدت عليها من قرطبة حاضرة الخلافة الأموية وسرقسطة ومالقة والمرية وغيرها من حواضر ملوك الطوائف فهي تصور الغلو في الزخرفة والافراط في تغطية مساحاتها بضروب الصناعات مع المبالغة في الرقة ، وفيها نطالع روح الاعتدال والتناسق بخلاف ما يتصف به الفن المغربي من تقشف وبساطة .

الفصل الثانى

القصـور

١ ـ القصور الأندلسية فى عصر الدولة الأموية وعصر ملوك الطوائف

٢ ـ قصور الحمراء بغرناطة

(١)

القصور الأندلسية فى عصر الدولة الأموية

وعصر ملوك الطوائف

ما كاد المسلمون يوطدون أقدامهم فى الأندلس بعد الفتح ، ويخضعون هذه البلاد لسلطان الخلافة الأموية بدمشق — حتى انبعث بينهم الصراع القبلى الذى كان كامنا فى نفوسهم وأصبحت الأندلس فى عهد الولاة التابعين لخلافة دمشق مسرحا للفتنة والفوضى ومرتعا خصبا للاضراب مدة ثلاث وأربعين سنة • وقد افتتح هذا العهد البغيض بمقتل الأمير عبد العزيز ابن موسى ، وكان أبوه موسى بن نصير فاتح الأندلس قد استخلفه عليها بعد أن قفل الى المشرق سنة ٩٥ للهجرة (٧١٣ م) ، وانتهى بتغلب الأمير عبد الرحمن بن معاوية المروانى المعروف بعبد الرحمن الداخل على سرير الملك بقرطبة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥م) •

ثم بدأ عصر بنى أمية فى الأندلس ويعتبر امتدادا لعصرهم فى المشرق • ومؤسس هذه الأسرة فى الأندلس هو عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام الذى استطاع أن يفر الى المغرب الأقصى ، ويعبر الزقاق (١) الى الأندلس ، واستطاع بفضل ما أوتى من ألمعية أن يؤسس ملكا بعد فنائه ، وقد قال عنه أبو جعفر المنصور عدوه اللدود : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شئونه ، وعدمه لأهله ونشبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مراقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه فى لجج المهالك

لابتغاء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمـع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بتقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكا على قطيعته ، قاهرا لأعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه ، ان ذلك الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه (١) !! »

وما كاد عبد الرحمن الداخل يستقر بقرطبة ، ويستقيم أمره بهـا حتى بنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة ، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار . ومنذ ذلك العهد بدأ فن العمارة يتلمس طريقة فى الأبنية الدينية والمدنية، وجامع قرطبة شاهد صدق على هذه الحركة الكبرى فى البناء والتشييد،اذ يشف عن مثل من أروع أمثلة العمارة الاسلامية بل العالميـة فى العصر الوسيط : ذلك أن عناصره المعمارية والزخرفية تؤلف البـذور الأولى للفن الأندلسى المغربى ، وقد أخذت زخارفه تشع فى المشرق والمغرب ، فأثرت فى الزخرفة المسيحية والاسلامية على حد سواء وأوحت قبابه القائمة على هياكل بنائية من الضلوع المتقاطعة ابتكار القبوات القوطية، التى انتشرت فى العصر الأوربى الوسيط .

هذا هو العصر الأموى الذى نبت فيه الفن الاسلامى بالأندلس ، وما لبث أن ترعرع فى العصور التالية حتى وصل الى ذروة نضارته فى عصر بنى نصر ثـم هاجـر هذا الفن الى المغرب بعـد أن طرد من بلاده التى ولد فيها على أثر الاسترداد المسيحى ، وقدر له أن يقضى فيه البقية الباقية من حياته حتى نضب معينه ، وذبل عوده ، وقضى عليه بالفناء ! .

---

(١) المقرى : « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » تحقيـق محيى

ولا نود أن نطيل الحديث عن هذا الفن ، وانما قصدنا أن ندرس منه ناحية جديرة بالبحث هى القصور التى بناها الخلفاء والملوك المسلمون فى اسبانيا فى عهد بنى أمية ، وفى عهد ملوك الطوائف الذين ورثوا ملك الأمويين ، ثم فى عهد دولتى البربر المرابطين والموحدين ، وفى عهد بنى نصر الذين اختتم بهم الاسلام حكمه فى الأندلس .

وكان الأمراء والخلفاء يشيدون قصور الحكم بجوار المساجد الجامعة ، وكانوا يطلقون عليها اسم « دور الامارة » . على أنهم كانوا يلتمسون الراحة فى بعض الأحيان ، فكانوا يعمدون الى بناء قصور للراحة واللهو بعيدا عن الحاضرة ، ليتمكنوا من الاستغراق فى الترف ، والاستنامة الى حياة اللهو والنعيم التى لا تتاح لهم فى مقر الحكم بالحاضرة . وكانت هذه القصور تتخذ مظهرا عمرانيا شديد الشبه بالمدن الصغيرة ، فقد كانت تتألف من قصور الأمير وأفراد حاشيته وخاصته ، ومن منتزهات ومحال للوحش فسيحة ومسارح للطيور مظللة بالشباك وأسواق وحمامات وفنادق ودور للصناعة ومساجد وغير ذلك .

غير أن حياة هذه المدن الملكية كانت موقوتة ، فما أسرع ما كانت تنتهب وتسلب على أثر سقوط الأسرة الحاكمة ، كما حدث فى قرطبة عندما تداعى سلطان الخلافة القرطبية ، فعم النهب والسلب ، وفى ذلك يقول ابن حيان : « ... ... وانكدر باثر وفاته ابن باشة هدام القصور ومبور المعمور ، وكان من التبجح فى اللؤم ، والالتحاق للشؤم مع دناءة الأصل والفرع وتنكب السداد ، وتقيل الفساد — على ثبج عظيم ، بيده بادت قصور بنى أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت أعلامهم المنيعة ، قدمه ابن السقاء مدبر قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة ، فاغتدى عليها أعظم آفة ، وباع آلاتها من المرمر ومثمن العمد ونضار الخشب وخالص النحاس وصافى الحديد)

(١) [illegible] ج ٣ ص ١١١ — ١١٢ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة [illegible] ص ١٠ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ١٠ .

والرصاص بيع الادبار (١) • » •

وكذلك كان أمر قصور الزهراء التى شرع الخليفة عبد الرحمن الناصر فى بنائها عام ٣٢٥ هـ (٩٣٦م) ، اذ هدمها البربر فى ٢٣ من ربيع الأول سنة ٤٠١ هجرية (٤ نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، وذبحوا حاميتها ، ويروى ابن أبى زرع كيف تهدمت قصور الموحدين بمراكش بعد انقضاء سلطانهم (٢) •

ويغلب على الظن فى أسباب تخريب هذه القصور أن الاسلام يستهجن اضفاء معنى الأزلية على البناء ؛ فالدوام لله فقط ، وبناء قصور لها صفة الخلود أمر خارج عن الدين الاسلامى ، ويشف عن تحد للألوهية • وكان رجال الدين يترصدون الملوك ، وينتقدون كل أعمالهم، وكان عبد الرحمن الناصر كلفا بعمارة القصور عملا بقوله :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين كم بقياوكم

ملك محاه حوادث الأزمان ؟

ان البناء اذا تعاظم قدره

أضحى يدل على عظيم الشأن (٣)

وكان يلقى من زجر القاضى منذر بن سعيد البلوطى وتأنيبه ، ما

---

(١) ابن بسام الشنترينى « الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة » القسم الاول ، المجلد الثانى ، القاهرة عام ١٩٤٢ ص ١١١ — ١١٢ •
(٢) ابن أبى زرع ، « روض القرطاس » ج ٢ ص ١١٠ •
(٣) نفح الطيب جزء ٢ ص ١١٠ •

يجعله يبكى ، وقد قال له يوما : « فمتاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، وهى دار القرار ومكان الجـزاء » . ومضى فى ذم تشييـد البنيان والاستغراق فى زخرفته والاسراف فى الانفاق عليه بكل كـلام جزل وقول فصل .

وكان يحذره فجأة الموت ، ويدعوه الى الزهد فى هذه الدار الفانية، ويحضه على اعتزالها والرفض لهـا ، والندب الى الاعراض ، عنهـا والاقتصار عن طلب اللذات ونهى النفس عن اتباع هواها . وكان الخليفة فى كل مرة يضج بالبكاء ، ويندم على ما سلف له من فرطه (١) .

قصور بنى أمية بقرطبة :

ما كاد الأمير عبد الرحمن بن معاوية يستقر بقرطبة ، ويثبت قدمه فى الملك ، حتى عمد الى تجديد ما طمس لبنى أمية بالمشرق من معـالم الخلافة وآثارها ، فبنى الجامع بقرطبة ، وبنى مساجد أخرى ، كما أدار السور بقرطبة بعد أن هدمه السمح بن مالك الخولانى صاحب الأندلس، واستعمل حجره فى ترميم قنطرة قرطبة بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ (٧١٩) .

وقد شيد بنو أميـة قصر الدمشق بقرطبة ، وهـو قصر شيدوه بالصفاح والعمد ، وأبدع بناؤه ونمقت ساحاته وفنـاؤه ، وحكوا بـه قصرهم بالمشرق ، كما بنى الأمير عبد الرحمن الداخل منيـة الرصافة شمالى قرطبة لنزهه وسكناه أكثر أوقاته ، فاتخذ بها قصرا حسنا ودحا جنانا واسعة ، ونقل اليه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية وسماه باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه . وما زالت بعض آثار هذا القصر قائمة حتى وقتنا هذا .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٦ — ١٠٧ .

وعندما ولى الأمير عبد الرحمن بن محمد محمد الامارة عام ٩١٢م تلقب بألقاب الخلافة عا م٩٣٢ لما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتلــه مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة (٩٢٩م) فتلقب بألقاب الخلافة ليحيى الخلافة ما كان لها من هيبة • فلما استفحل أمره ، ونالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهار ما نالته حتى بلغت مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه الأمم الأخرى ، رأى أن يبنى له قصرا يليــق بجلال الخلافة وبهائها ، فبنى مدينة الزهراء على بعد خمسة أميــال تقريبا غرب قرطبة على سفح جبل العروس •

ولقد أمدتنا المدونات التاريخية العربية بمعلومات قيمة عن بنــاء هذه المدينة الخلافية وعن الفترة القصيرة التى ازدهرت فيها ، وعم بها الرخاء ، ثم عن الأسباب التى أدت بها الى الزوال ، فانحدرت سريعا الى القبر ، وكانت ماتزال فى مقتبل عمرها ، ويروى المؤرخون قصة بناء هذه المدينة فيما يشبه الأساطير ، ويعزون تسميتها هكــذا الى جارية أغرم بها عبد الرحمن الناصر واسمها زهراء ، ويعللــون ذلك بوجــود تمثالها على أحد أبواب المدينة • وللقارىء أن يطالــع تلك القصة فى كتب التاريخ (١) •

وحسبنا أن نذكر هنا أنه شيد بهــا قصورا كثيرة : منهــا ، قصر المؤنســ ، وقصــر الخلافـــة ، وقصــر الزهــراء ، وكانــت أسقف هذه القصور من القراميد المذهبة ، وعمدها من الرخام والمرمر ، وجدرانها مكسوة بلوحات الرخام المذهبة والفسيفساء •

---

(١) انظر على الاخص كتاب « نفح الطيب » ج ٢ صفحات ٦٥ — ٦٨ ، ١٠٣ — ١٠٥ ، وابن خلكان فى كتابه « وفيــات الاعيان » ج ٢ ص ٢٩ — ٣٠ •

وقد بالغ مؤرخو العرب فى وصف روائع تلك القصور وما احتوته من مظاهر الترف والثراء ، مما لايمكن أن يصدقه العقل ولا المنطق ، غير أن ما أسفرت عنه الحفريات أثبت بصورة قاطعة صدق هذا الوصف ، فكشفت عن قطع من أجمل ما أبدعه فن النحت فى الرخـام والجص والحجر فى الأندلس فى العصر الوسيط .

ولم يتم بناء مدينة الزهراء فى عهد عبد الرحمن الناصر فأتمها ابنه الحكم المستنصر من بعده عام ٩٧٦ م ، وظلت الزهراء فى ازدهارها حتى ظهرت مدينة الزاهرة فى الوجود ، وهى مدينة بناها المنصور بن أبى عامر سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨م) (١) غير بعيد من قرطبـة ، فأصبحت منافسة للزهراء ... ... وأقبل عام ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) فكان مؤذنـا بالانهيار ، اذ هاجمتها حشود البربـر فى ٤ من نوفمبـر سنة ١٠١٠ ، واقتحموها عنوة ، وتبع ذلك مذبحة دامية قضوا فيها على حامية المدينة، وقتلوا الرجال والنساء والأطفال ونهبوا الدور والقصور ، وأوعز اليهم سليمان المستعين باضرام النيران فى المدينة ، حتى أصبحـت أثرا بعـد عين !!

صارت الزهراء أكوام خرائب ، وتلال أطلال ، وكانت جـدرانها

---

(١) بناها محمد بن أبى عامر على نهر قرطبة ، وتوسـع فى تخطيطها ، وبالغ فى رفع أسوارها ، فاتسعت المدينة وصارت كاملة بعد عامين. وفى سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠م) انتقل اليها المنصور واتخذ فيها الدواوين وبنى كبار قواده ورجال حاشيته بها عظيم الدور وشاهـق القصور وقامت بها الاسواق وكثرت الارفاق . وعطل ابن أبـى عامر قصر الخليفة بالزهراء ، وصيره بمعزل من سامعه من سامعه وسـد باب قصره عليه وكان لابن أبى عامر بالزاهرة قصر رائع يعرف بالعامرية يفوق قصور الزهراء فى عظمته وجماله ، وخربت الزاهرة بعد وفاة المنصور ومضت كاسس الدابر وخلت منها الدسوت المكتبية والمنابر وتلاشى أمرها وأصبحت قاعا صفصفا .

الخربة ما تزال قائمة فى عهد الشريف الادريسى ، ولم يخطىء أحد الكتاب فى تسميتها « بومبى العربية » .

وقد تتوقلت عن روائع هذه المدينة روايات ساقها المؤرخون والجغرافيون العرب والاسبان الذين بهرتهم روائعها الفنية . واجتذبت أكوام الخرائب والارتفاعات التى كانت تضم فى أحشائها بقايا قصور الزهراء اهتمام رجال الآثار فى العصر الحديث بعد أن ظلت حتى مطلع القرن الماضى محاجر غنية تستخرج منها الأحجار وتيجان الأعمدة لتزين دور قرطبة وأشبيلية ، ثم عمد المهندس الأثرى فيلاسكيث بوسكو الى اجراء أول حفائر علمية بها . وكان أول ما أسفر عنه البحث هو الكشف عن الفاصل بين المدرج العلوى والأوسط ، كما أسفرت عن كشف كميات هائلة من الخزف ذى البريق المعدنى وقطع كثيرة من الزجاج ، ثم كشف عن آثار أحد تلك القصور ، وظن فيلاسكيث بوسكو أنه قصر الخلافة (١) على حين ثبت فيما بعد أن ما اكتشفه لايعدو أن يكون جزءا من قصر الحكم المستنصر بدليل ما نقرؤه على بعض تيجان الأعمدة .

ثم تتابعت الحفائر العلمية على أيدى كبار رجال الآثار مثل دون فيليث هرناندث ودون رافاييل كاستخون . فأسفرت عن اكتشاف آثار قصر من قصور الناصر سنة ١٩٤٣ (١) ، وهى آثار غنية بالزخارف فى

Velazquez Bosco (R.). Excavaciones en Medina Azhara Madrid 1923.

(١) انظر كاستخون

Rafael Castejon : Excavaciones del plan nacional en Medina Azhara (cordoba): Campana de 1943, Madrid 1945.

Nuevas excavaciones en Medina al - Zahara; El salon de 'Abd er-Rahman III, Al-Andlus, 1945, pp. 147 - 159.

الحجر والرخام • وقد نسبت هـذه الآثار الى عبد الرحمـن الناصر لوجود اسمه منقوشا علـى تاجين صغيرين فيه • ومـا زالت الحفائر الأثرية جارية حتى وقتنا هذا • وما يزال دون فيليث هرناندث يتابـع بحوثه الأثرية وترميماته لقصر الناصر ، فاستطاع أن يعيده الى صورته الأولى كما استطاع أن يكسـو جدرانه بالقطـع الحجرية التى كانت مدفونة فى الأطلال بعـد أن لصقها فيما بينها مراعيا فى ذلك تناسـب الزخارف وتناسقها •

ويمكننا أن نستنتج مما أسفر عنه البحث الأثرى أن قصور هذه المدينة نوعان :

الأول : الدار التى تقوم على فراغ مركزى هو الصحن التى تتوزع حوله كل الغرف •

الآخر : هو القصر الذى يتألف من بلاطات متوازية تفصلها فيما بينها أعمدة تقوم عليها عقود كما هو الحال فى المساجد الأندلسية (١) • وقد اتبع هذا النوع نظام القصور الفارسية •

كما أسفر البحث الأثرى عن كشف الموقع الذى كان يشغله جامع الزهراء ، وأغلب أرضيات المجالس والقاعات التى تتألف منها القصور مكسو بقراميد الآجر المرصعة بالأحجار وقطع الآجر الحمراء فى أشكال هندسية غاية فى الروعة والجمال ، وتكشف تيجان الأعمدة وطنوفهـا وقواعدها وبعض اللوحات الحجرية عن فن رفيع فى الحفر الغائر فى

Elie Lanbert : Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, Al-Andalus, Vol. XIV, fasc. 2, 1949. pp. 273-291.

الحجر والرخام ، وينحو هذا الفن فى أسلوبه نحو التقاليـــد البيزنطية حين ينساب الحفر الى عمق كبير مما يؤدى الى اكساب الزخرفة نوعـــا من التباين الحاد بـــين الظل والضوء ، ومعظـــم التيجان مـــن الطراز الكورنثى والطراز المركب ، وكانت قواعد الأعمدة من الرخام الناصـــع البياض •

القصور فى عصر ملوك الطوائف

انتثر سلك الخلافة الأموية فى ١٠١٠ م ، وتبع ذلك قيام عدد من الدويلات المستقلة فى جميع أنحاء الأندلس ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالبلاد ، واقتسموا خطتها ، وتغلب بعضهم على بعض ، ثم استقل بأمر هذه البلاد ملوك استفحل أمرهم ، وعظم شأنهم ، أمثال بنى عباد باشبيلية ، وبنى الأفطس ببطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى جهور بقرطبة ، وبنى حبوس بغرناطة .

وكان طبيعيا ، وقد انهار سلطان الخلافة بقرطبة ، أن تلتمس العناصر الثقافية والفنية ، التى كانت تزخر بها ،مجالا أنسب لها فى ظل هؤلاء الملوك ، وكان نتيجة لذلك أن تألفت فى عاصمة كل مملكة من هذه الممالك الصغيرة جماعات فنية حتى لقد اعتبر هذا العصر بحق أزهى عصور الفن الأندلسى بالرغم من التدهور السياسى الذى أخذ يدب فى جسم دولة الاسلام بالأندلس ويصيب سلطان المسلمين فى هذه البلاد وزحف الاسترداد الأسبانى زحفا حثيثا على حين استغرق ملوك الطوائف فى الملاذ ، وعكفوا على اللهو ، واستناموا لحياة الترف ومظاهر الرقة التى كانت تنعم بهما الاندلس فى ذلك العهد ، ولاذوا بالجزيات الألفونسو السادس اتقاء لشره ورغبة فى خطب سلمه ومرضاته ، حتى ظهر يوسف بن تاشفين أمير المسلمين فى المغرب ، وتعلقت آمال الأندلس بنجدته بعد أن ضايقهم ألفونسو فى طلب الجزية . فعبر ابن تاشفين الزقاق الى الأندلس والتقت جيوشه وجيوش قشتالة فى واقعة الزلاقة ، فكانت هزيمة النصارى وبداية عصر المرابطين فى الأندلس .

وقد بلغ ملوك الطوائف فى الترف والرقة الغاية ، وأقاموا القصور السامقة والآثار الجليلة الرائعة وقد بالغ المؤرخون العرب فى وصفها ، ومن أهمها قصر ابن ذى النون فى طليطلة ، وقصر الجعفرية بسرقسطة وقصر القصبة بمالقة .

قصر المأمون بن ذى النون بطليطلة :

شيده ملك طليطلة المأمون بن ذى النون (ف ٤٤٥ هجرية ١٠٦٣م)، وأتقنه الى الغاية ، وأنفق عليه أموالا طائلة ، وصنع وسطــه بحيرة ، وصنع فى وسط البحيرة قبة من زجاج ملــون منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها ، ويتصل بعضــه ببعض ، فكانت قبــة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج لايفتر من الجرى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء ولا يصل اليه ، وتوقد فيها الشموع ، فيرى لذلك منظر بديع عجيب .

وقال ابن حيان عن ابن جابر فى وصف أحد مجالس هذا القصر وهو مجلس المكرم : « وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ، وأغرب ما قيد لحظى من بهى زخرفة الذى كاد يحبس عينى عن الترقى عنه الى ما فوقه ، ازاره الرائع الدائر بأسه حيث دار (١) ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون الزارية صفحاته بالعاج فى صدق الملاسة ونصاعة التلوين ، قد خرمت (٢) فى جثمانه صور البهائم ، وأطيار ذات ثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بمــا يليها من أفنان أشجــار وأشكال الثمر ما بين جاد وعابث ، كما تعلق بعضها بين ملاعب ومثاقف، ترنو الى من تأملها بألحاظ عاطف كأنها مقبلة عليه أو مشيرة اليه !! وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها متميزة من شكلها ، تكاد تقيد البصر

---

(١) يقصد بذلك الكسوة الرخامية التى تغطى الجزء الادنى فى الجدار .
(٢) يعنى الزخارف الحيوانية التى حفرت فى هذه الكسوة الرخامية حفرا غائرا عميقا من شأنه ابراز هذه الاشكال حتى تبدو كالتماثيل

عن التعلى الى ما فوقها ، قد فصل هذا الازار (١) عما فوقه كتاب (٢) نقش عريض التقدير ، مخرم محفور ، دائر بالمجلس الجليل من داخله ، قد خطه المنقار (٣) أبين من خط التزوير ، قائم الحروف بديع الشكل ، مستبين على البعد ، مرقوم كله بأشعار حسان ، قد تخيرت من أماديح مخترعه المأمون .

وفوق هذا الكتاب الفاصل فى هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الابريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار وصور أنعام وأشجار تذهل الألباب وتقيد الأبصار .

وأرض هذه البحار (٤) مدحوة من أوراق الذهب الابريز ، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير وأبدع تقدير (٥) » . وأضاف قائلا :

« ولهذه الدار بحيرتان قد نصبت على أركانهما صور أسود مصوغة من الذهب الابريز أحكم صياغة ، تتخيل لمتأملها ، كالحة الوجوه فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هونا كشيش القطر أو سحالة اللجين ، وقد وضع فى ثغر كل بحيرة منها حوض بديع يسمى المذبح ، محفور من بديع المرمر ، كبير الجرم ، غريب الشكل ،

---

(١) اشتقت هذه الكلمة من الازار وهو رداء يغطى الجزء الاسفل من الجسم من الوسط حتى تضفى الساقين ومنه فعل تازر ال احاط بحزام او نحوه ومازالت هذه اللفظة تستعمل فى اللغة الاسبانية بالمعنى الذى اشرنا اليه فهى كسوة من الرخام او الزليج تغطى الاجزاء الدنيا من الجدران (Alizar)

(٢) افريز أو طراز من الكتابة يحيط بأعلى الجدار .

(٣) الالة التى ينقش بها النقاش .

(٤) افاريز او طراز ارضيتها مزججة وانزلت بالذهب .

(٥) انظر ابن بسام : « الذخيرة » قسم [illegible]

بديع النقش ، قد أبرزت من جنباته صور حيوان وأطيار وأشجار (١) ، وينحصر منها في شجرتي فضة عاليتي الأصلين غريبتي الشكل ، محكمتي الصنعة ، قد غرزت كل شجرة منهما وسط كل مذبح بأدق صناعة ، يبرق فيهما الماء من المذبحين ، فينصب من أعالي أفنانهما انصباب رذاذ المطر أو رشاش التندية ، فتحدث لمخرجه نغمات تصبي النفوس ، ويرتفع بذروتها عمود من الماء ضخم منضغط الاندفاع ، ينساب من أفواهها ، ويبلل أشخاص أطيارها وثمارها بألسنة كالمبارد الصلقية ، يقيد حسنها الألحاظ الثاقبة ، ويدع الأذهان الحادة كليلة » .

هذا الوصف المعبر الذي ينطق بما كان عليه هذا القصر يجلو لنا ما كان يقوم به المأمون لتجميل قصره ، كما يشير الى الدور الذي لعبته البحيرات في تجميل القصر ومجالسه ، وقد اندثر هذا القصر ، ولانعرف عن أمره شيئا يذكر . على أن بطليطلة لليوم آثار قصر يعرف بقصر جاليانا في فحص نهر تاجة ، ويغلب على الظن أنه هو المنية أو القصر الشهير الذي شيده أبو الحسن يحيى المأمون بن ذي النون .

وقد نسج المؤرخون الاسبان حول هذا القصر قصصا من الفروسية والأساطير ، وتروى هذه القصص أن أميرة مسلمة تدعى جاليانا كانت تعيش فيه ، وبعد مغامرات عجيبة الشأن انتهى بها الأمر الى أن تتزوج الامبراطور شارلمان . وقد بقي من هذا القصر جزء مستطيل أقيم في طرفيه طبقتان تؤلفان برجين كبيرين ، وتتكون الطبقة الدنيا من قاعة متوسطة ، وتتخلل جدرانها فتحات .

والبناء على الطراز الطليطلي تتناوب فيه صفوف الحجارة وصفوف

---

(١) يشبه هذا الحوض حوض مدينة الزاهرة الذي عثر عليه في اشبيلية ، وفيه هذه الزخرفة الحيوانية النباتية نفسها .

الآجر ، أما القبوات فمتعارضة ، وقد بقيت بعض عقود نصف دائرية قليلة التجاوز ، وأخرى مفصصة فى مداخل الغرب • أما الزخارف فمن نوع المدجن ، وتحمل رنوك أسرة قزمان مما يفسر الى حد كبير صحة هذه الرواية (١) •

ب قصر الجعفرية بسرقسطة :

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هود ملوك سرقسطة ، وما اليها ، ومن أشهر من المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن وولى بعده ابنه المستعين أحمد سنة سقوط طليطلة عام ١٠٨٥ م واستشهد عام ١١٠٩ م بظاهر سرقسطة • وكانت سرقسطة فى عهده « جنة الدنيا ، وفتنة المحيا ، الوصف ، وموقف السرور والقصف (٢) » •

وقصر الجعفرية من بناء أبى جعفر أحمد المقتدر بالله عام (١٠٤٧ ـ ١٠٨١ م) كما يثبت ذلك نقش بأحد تيجان أعمدته وقد سمى بالجعفرية نسبة الى كنيته « أبى جعفر » ؛ وقد كان المقتدر يسميه « مجلس الذهب » وفيه يقول :

قصر السرور ومجلس الذهب
بكما بلغت نهاية الإرب
لو لم يحز ملكى خلافكما
كانت لدى كفاية الطلب

---

(١) Marqués de Lozoya : Historia del arte Hispanico t. I, p. 237.

(٢) « نفح الطيب » ج ٢ ص ١٧٠ •

وما كادت سرقسطة تقع فى أيدى النصارى حتى تحول القصر الى دير ، ثم الى حصن استقر فيه ملـوك أرغون ، ثـم ألحقت به عـدة مقصورات دينية نذرت لسان جورج ، ثم أضيف اليه فى عهـد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيلا قاعة العرش الرائعة عام ١٤٩٢ م . غير أنه ما لبث أن أقيمت فيه محكمة التفتيش بسجونها الرهيبة ، ثم دعمه فيليب الثانى بمعاقل وحفر من حوله خندقا .

وفى عهد ايزابيلا الثانية تحول الىمعسكر سنة ١٨٦٦ م ، فهدمت المقصورة الكبرى التى شيدها بدرو الرابـع ، وجردت منهـا زخارفها الاسلامية الرائعة .

ويقول جوميث مورينو فى ذلك : « انه عمل بربرى يندى له الجبين من أشد النقط سوادا فى تاريخ اسبانيا (٢) » . ولم يستثن من هـذا العمل الهمجى سوى المصلى الذى يؤلف بزخارفه — مع ما يحتويه متحفا سرقسطة ومدريد من تيجان أعمدة وعقود جصية رائعة كل ما بقى من بنى هود .

ومن العسير أن نتصور ما كان عليه هذا القصر قبل أن يعتريه هذا التشويه ، ولكن لدينا تصميما حربيا يصور هذا القصر عام ١٧٥٧ م . وقد استطاع سافيرون أن يقيم على هذا التصميم دراسة علمية هامة .

والقصر على مسافة قصيرة من ربض المدينة على نهر ابرة ، ويتألف من سور مستطيل (٨٠ × ٦٨م) يدعمه تسعة عشر برجا أسطـوانى

Gomez Moreno : Ars Hispaniae, tomo III. p. 221 and & El

الشكل (١) عدا برج التكريم فقد كان مربـــع الشكل ، بداخله عقــود متجاوزة • وفى وسط هذا البناء صحن مستطيل تدور به أروقة جانبية على حين كانت تطل على جانبيه القصيرين مجموعتان مـــن الغرف كل منهما تتألف من قاعة فى الوسط وغرفتين جانبيتين ، كما هـــو الحال فى قصور بنى نصر بغرناطة وقصور المدجنين (٢) • وكان بناء هذا القصر من الملاط •

وكان الى جانب برج التكريم قاعة كبيرة لعلها مجلس الذهب الذى كان يعتز به المقتدر ، وتنفتح فى جانبيها غرفتان احداهما يشغلها المسجد الذى مازال قائما حتى وقتنا هذا وكانت هـــذه القاعة الكبرى تتصـــل جنوبا بالصحن • وكان يقابله فى الجهة الأخرى قاعة تسمى قاعة الرخام نسبة الى كثرة أعمدتها الرخاميـــة • وقد كشفت بائكـــة من العقـــود الاسلامية كانت تتصل بأسطوان المدخل الرئيسى على أثر هدم جزء من مقصورة سان جورج التى فى جنوب قاعة الرخام • وتتألف هذه البائكة من ثلاث عقود كلها غلو فى التعقيد الزخرفى وعقودها طبقتان ، احداهما فوق الأخرى ، والدنيا منهما من عقود مفصصة متقاطعة ، فوقها عقود أخرى تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات • وفيها نشهد اتجاه الفن الأندلسى اذ ذاك الى الاسراف فى التعقيد والغلو فى حشد الزخرفة والتوسل بالعقود المتقاطعـــة التى تظهر فيهـــا التوريقات المتشابكـــة والتشجيرات المتداخلة •

أما المصلى فبابه مدجن ، أما داخله فمثمن الشكل ، وأصله مربع

---

(١) يتشابه هذا القصر فى احاطة الابراج المستديرة والقصور الاسلامية المنبثة بالصحراء ما بين سوريا والعراق كقصر المشتى والاخيضر ، فى حين تتشابه تفاصيله المعماريـــة الداخلية وزخارفـــه والعناصر المعمارية والزخرفية للفن الخلافى القرطبى .

(٢) هم أهل الدجن أى المسلمون الخاضعون للنصارى .

طول ضلعه ٥ر٤٦ من المتر تحول الى مثمن بأن أقيمت فى أركانه أنصاف حوائط . ويشغل المحراب الركن الجنوبى الشرقى ، وتعلوه قبيبة مفصصة قوقعية الشكل ، ومدخله على شكل عقد متجاوز يشبه عقد جامع قرطبة ، يحيط به افريز مستطيل وفى بنيقة قوقعتان ، أما سنجاته فمحشوة بالزخرفة وملساء بالتناوب ، ويزين الجدران السبعة الأخرى عقد أصم شديد التعقيد من النوع الذى تختلط فيه الخطوط والمنحنيات (١) . ويحيط به افريز بارز يتخذ الشكل نفسه ، وتحمل هذه العقود أعمدة ملتصقة بالجدران ، ويجرى بالأجزاء العليا من جدران المصلى طراز زخرفى تعلوه بائكة زخرفية ، تتألف من عقود مزدوجة مفصصة تقوم على أعمدة صغيرة . ويرجع الأستاذ تورى آلبا أستاذ الفنون بجامعة سرقسطة أن هذا المسجد كانت تعلوه قبة قائمة على ضلوع متقاطعة على النحو الذى نراه فى قبة المسجد الجامع بتلمسان .

وليس هذا المسجد — على حد قول أحد مؤرخى الفن الاسبان — بيتا لصلاة ، « وانما هو بيت للفن يضم أروع ما أبدعه الفن الأندلسى (٢) » . أما العقدان المحفوظان اليوم فى متحفى مدريد وسرقسطة فكانا يزينان القاعة الرئيسية . وكانت هذه العقود فيما يظهر أربعة موزعة على الجدران الأربعة للقاعة ، وفيها يستحيل على المرء أن يتقصى امتداد خطوطها ، اذ هى تتشابك وتتداخل فيما بينها بطريقة ساحرة فريدة .

ويحتفظ متحف سرقسطة بمجموعة رائعة من تيجان الأعمدة

---

(١) انظر : Gomez Moreno, Op. Cit. p. 226

(٢) J. Galiay, El Castillo de la Aljoferia, 1906, p. 20.

المرمرية التى تمثل لنا مقدار التطور الذى بلغه الفن الأندلسى بعد أن تحرر مما كان يغلب عليه من تأثيرات سابقة على الاسلام ، ونلمس فى هذه التيجان حرية الأداء التى طبعت هذه التيجان بطابع من الرشاقة وأضفت عليها قواما أسطوانيا يحمل فى أعلاه رأسا مكعبا . وتكسو هذه التيجان زخارف قوامها ورقة الأكنثس . والتوريقات الدقيقة التى حفرت على طبقتين حفرا غائرا يبرز هذه الزخارف .

ولاتزال فى متحف سرقسطة أشلاء كثيرة من هذا القصر نجهل مكانها منه ، وتتألف من ألواح رخامية وشمسيات جصية ان دلت على شىء فعلى ما وصل اليه الفن الاسلامى فى الأندلس من تعقيد رائع يعجز عنه الوصف ، ويعتقد لامبيريث أن قصر الجعفرية هو الأصل الذى حاكاه عرفاء الموحدين فى اشبيلية وبنو نصر فى غرناطة : ففى هذه الأبنية يغلب طابع الضعف ، ويشيع استعمال الزخارف الجصية لقلة الأحجار كذلك أثر قصر الجعفرية فى عمائر الموحدين وعمائر بنى نصر ، من حيث تصميم الصحن المستطيل والمجنبات المحيطة به (١) .

قصر بنى حمود بقصبة مالقة :

كان على بن حمود الحسنى وأخوه قاسم من سلالة ادريس ابن الحسن مؤسس دولة الأدارسة بفاس قد أجازا مع البربر من العدوة الى الأندلس ، وآزرهما البربر ، فملكا قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦م) ، وقتلا سليمان المستعين ، وقام بالأمر من بعده على بن حمود الذى تلقب بالناصر . ودام له الملك عامين الى أن قتله صقالبته سنة ١٠١٨ م ، فوليه كانة أخوه القاسم وتلقب بالمأمون . ونازعه الأمر يحيى بن على

---

(١) Ricardo del Arco : La Aljaferia de Zaragoza, Revista "Arte Espanola", No. 5, 1926, p. 166.

بن حمود ، وكان قائما على سبتة ، فأجاز الى الأندلس سنة ١٠١٩ م واحتل مالقة ،وكا ن أخوه ادريس واليا عليها منذ عهد أبيه ، فبعث أخاه الى سبتة ، وزحف يحيى الى قرطبة ، فاستولى عليها سنة ١٠٢١ م وتلقب بالمعتلى ، وأخذ يوسع رقعة مملكته ، فاستولى على الجزيرة الخضراء ثم خضع له أهل شريش سنة ١٠٢٥ م وظل قائما بالحكم حتى هلك عام ١٠٣٧ م ، وخلفه أخوه ادريس بن على وضم اليه رندة والمرية ، ولكنه هلك عام ١٠٣٩ م وبويع ابنه يحيى ، ولكنـــه فر الى قمارش •

ثم توالت الأحداث على هذا النحو بين أبناء العم ، وأخذ المعتضد بن عباد ملك اشبيلية ، وقد انتهز الفرصة ، وانتزع من بنى حمود المدنية اثر المدينة ، فسقطت أركش ومورور ورندة سنة ١٠٥٣ م ، ثم سقطت فى يده الجزيرة الخضراء سنة ١٠٥٥ م واستولى ابنه المعتمد على جيان سنة ١٠٧٤ م ، وما لبثت دولة بنى حمـــود أن انقرضت عـــلى أيدى المرابطين •

وقد شغلت الحروب والمنافسات والفتن الداخلية أفراد هـــذه الأسرة عن العمارة والتشييد • ويبدو أن يحيى بن على هو الذى قام ببناء هذا القصر بقصبة مالقة ، ولم يبق من هذا القصر الذى أضيف اليه فى عصر بنى نصر سوى قاعة يبلغ طولها ٧٫٥٠ من المتر ، وعرضها ٣ أمتار ، وتنتهى جنوبا بشرفة رائعة تطل على البحر ، وتبدو جدرانها من الخارج فقيرة البناء ، ولكن الزخارف التى تكسو أجزاءها الداخلية وثيقة الصلة بزخارف قصر الجعفرية •

وعندما بدئت الحفائر فى قصبة مالقة سنة ١٩٣٦ م لم يكن فى الحسبان اكتشاف مثل هذا الأثر الجليل الذى يرجع الى القرن الحادى عشر م ، ومدخل القاعة تزينه بائكة من ثلاثة عقود شديـــدة التجاوز ،

مكسوة سنجاتها بزخارف رائعة • ويسبق هذه البائكة رواق أعيد بناؤه فى عهد بنى نصر كما يبدو من أسلوب التيجان ونوع العقود • وتطل هذه القاعة على صحن شأنها فى ذلك شأن الجعفرية بسرقسطة ، والى والى غربها بناء مربع طول ضلعه ٥٠ر٢م ن المتر ويقوم فى كل واجهة من واجهاته الأربع عقدان متقاطعان ، وينشأ من تقاطعهما عقد جديد يعلوها على النحو الذى نراه فى عقود زيادة الحكم بجامع قرطبة . وهذه العقود جصية ملساء ،أما القاعة نفسها فكان يدور بجدرانها طراز بارز به زخرفة جصية لم يبق منه الا أجزاء ملتصقة بالجدران •

وعقود المدخل تتألف من سنجات مزخرفة وأخرى عارية من الزخارف بالتناوب ، كما هو الحال فى عقود جامع قرطبة بزيادة الحكم • أما زخارف عقود المدخل وعقود الشرفة فجصية متعددة الألوان ؛ تنتشر فيها التوريقات ، وتظهر بينها مراوح نخيلية طويلة ما تلبث أن تلتف حول نفسها ، وكيزان الصنوبر ، وفى باطن هذه العقود لوحات موزعة فى امتداد السنجات تحتشد فيها الزخارف الجصية التى تذكر بفن قرطبة وتمهد لزخارف قصر الجعفرية •

قصور اشبيليـــة فى العصر الاسلامى

أصبحت اسباليس Hispalis (أو اشبيلية) منذ أن مصرهـا يونيوس قيصر وأعاد بنيان أسوارها ووسع عمرانها تجاه نهر بيطى الذى عرف فى العصر الاسلامى بالوادى الكبير أو النهر الأعظم ، أعظم مدن اسبانيا الجنوبية ، وكان قيصر سورها وأمهرها بقصبتين متقنتين ترتفعان فى وسطها ، وجعلها أم قواعد الاندلس (١) . ونعمت اشبيليـة بهذا التفوق طوال العصر الرومانى وحقبة طويلـة من عصر القـوط الغربيين ، فقـد كانت حـاضرة القوط ومقر ملوكهـم الى أن نقل ليوفيخيلدو الحاضرة القوطية الى طليطلة فى سنـة ٥٦٧ م ، وتعرضت اسوارها المنيعة لهجماته فى سنة ٥٨٣ (٢) . ومع ذلك فـان اشبيلية لم تتخل عن مكانتها السامية التى كانت تتبوأها ، وبقى فيها « شرف الرومانيين وفقيهم ودينهم ورياستهم فى دنياهم » (٣) .

ووضع انتصار طارق بن زياد على جيوش القوط فى وادى لكه فى ٦ شوال سنة ٩٢ هـ (٢٥ يوليو ٧١١ م) نهاية لحكم القوط ، ثم زحف الى شذونة فافتتحها عنوة ومضى بعدها الى مدور وعطف على قرمونة، ثم انحرف الى اشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ، وكان هدفه التالى مدينة استجة التى أطبق عليها من كل جانب حتى دخلها صلحا ، ومـن هناك سير عسكر لافتتاح قرطبة فى حين واصل زحفه نحـو طليطلـة العاصمة .

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، تحقيق من ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٩ .

(٢) Juan Mata de carriazo, las Murallas de sevilla, en «Archivo Hispalicnse» No 48 - 49, p. 21, 22.

(٣) اخبار مجموعة فى فتح الاندلس ، تحقيق لافونتى التنطرة ، مدريد ، مدريد ، ١٨٦٧ ص ١٦ .

وفى العام التالى جاز موسى بن نصير الى الاندلس فى ١٨ ألف من العرب ، وتمكن من افتتاح اشبيلية بعد أن حاصرها أشهرا (١) ، وكانت آنذاك « أعظم مداين الاندلس ، شأنا وخطبا ، وأعجبها بنيانا وآثارا » (٢) ، ولعل ذلك كان من جملة الاسباب الى دفعته الى اختيارها قاعدة للاندلس ، بالاضافة الى مزايا موقعها الاستراتيجى على البحر المحيط عند مصب الوادى الكبير ، وارتباطها فى يسر عن طريق البر والنهر بسائر مدن الاندلس الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية ، وسهولة اتصالها بسواحل العدوة من بلاد المغرب . غير أن اشبيلية لم تهنأ طويلا بهذا التفوق ، اذا انتقلت الحاضرة منها الى قرطبة بعد أربع سنوات فقط من رحيل موسى بن نصير الى الشرق ، وتم ذلك على يدى ابن حبيب اللخمى فى نفس العام الذى لقى فيه عبد العزيز بن موسى مصرعه (سنة ٩٧ هـ / ٧١٦م) .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد ازدهرت اشبيلية فى عصر الولاة واستقرت بها أسرات عربية مصرية وعلى الاخص يمنية ، فمن المصرية بنو الجد من أعقاب عبد الملك بن قطن الفهرى (٣) وبنو الطفيل بن العباس من غطفان وكانت منازلهم بقرية قرشانه من الشرف (٤) ، وبنو عوف بن قرة بن ديسم من ذبيان (٥) ، وبنو عبد الرحمن بن عبد الله

(١) نفس المصدر .

(٢) نفسه ، ويذكر ابن الاثير انها « من أعظم مدائن الاندلس بنيانا واعزها اثارا » ، الكامل فى التاريخ ، طبعة صادر ، بيروت ١٩٦٥ ، ج ٤ ص ١٤ .

(٣) المقرى ، نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٤ ص ١٣ .

(٤) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٤٩ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

الغافقى بمرينانه الغافقيين قرب اشبيلية علـى الواد ى الكبير (١) • ونزلتها من اليمنية أسرات أكثر عددا تركت بصماتها واضحة فى عدد من المواضع والقرى المحيطة باشبيلية مثل قرية مقرانة (٢) التى يذكرنا اسمها بموضع من اليمن اتخذته الدولة الطاهرية حاضرة لها ، وليس من المستبعد ان يكون هذا الاسم قد أطلق على موضع نزلتـه احدى قبائل اليمن التى استقرت فى نواحى اشبينية على غرار بعض المواضع التى نزلتها قبائل يمنية مثل قلعة خولان (los Gazules Alcala de) وقلعة يحصب المعروفة أيضا بقلعة بنى سعيد (وتعرف اليوم باسم (Alecale la Real) ، وان كـان البـاحث الاثـرى الاستاذ كوبافنتيس دى تيران Collantes de Teran يعتقد أن المقطع الاخير من مقارنة Macarena وهو يضاف عادة الى اسم علم للدلالة على صفة مثل Juliana التى تعنى عقارا يملكه شخص يدعى Julins وعلى مثالها Macarena التى تعنى قرية تنتسب الى شخـص يدعى ، ويعتقد كويانتيس أن Macarena كانت موضعا أو قرية تقع على المحجة العظمى يقوم فيها برج للحراسة على نمط القرى التى كانت تتبع اقليم اشبيلية (٣) • ومن بين أسماء القبائـل اليمنية التى استقرت باشبيلية نذكر بنو الخيار بن مالك بن زيـد من كهلان بن سبأ (٤) ، وبنو الضبيب من جذام (٥) ، وبنو ثوابة بن عدى وبنو

---

(١) نفسه ، ص ٣٢٩ •

(٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ تحقيق د . حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٤٠ ويذكر ياقوت انها حصن باليمن (ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مقراية) •

Collantes de Teran, La Torre y la puerta de Macarena, en «Archivo Hispaliense, No 43 - 44, Seirlla, 1950, p. 202.

(٣) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، نشره ليفى بروفنسـال ، القاهرة ١٩٤٨ ، وطبعة ١٩٦٢ ص ٣٤٩ •

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٢١

عباد من لخم (١) ، وبنو خلدون الحضارمة (٢) ، كذلك استقرت باشبيلية طائفة كبيرة من المولدين نخص بالذكر منهم بنو انجلين Angelino وبنو شرقة Sabarico وبنو الجريح • Morce (٣) •

ولم يلبث الصراع بين العصبيتين اليمنية والقيسية أن وجد صداه فى الاندلس فى عصر الولاة وأصبحت البلاد مسرحا للفتن والاضطرابات ففقدت اشبيلية خلالها كثيرا من تألقها ، وأثر ذلك بوضوح فى عمرانها ، ولكن قيام الدولة الاموية فى الاندلس فى سنة ١٣٨ هـ وضع حدا لاقوامها، ولم يزعزع استقرار الامارة الاموية فى قرطبة المكانة السامية التى ظلت تنعم بها اشبيلية فى ظل بنى أمية ، فقد ازدهرت هذه المدينة اقتصاديا وعمرانيا ، وعلى الاخص فى عهد الامير الاموى عبد الرحمن الاوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ / ٨٢١ — ٨٥٢م) أول أمراء بنى أمية الذى عمل على تفخيم السلطنة بالاندلس بما شيده من قصور ومساجد وحصون وأسوار وما أسسه من مدن وما أحدثه من نظم ادارية ومؤسسات للحكم ، وأبرز اعماله الانشائية المسجد الجامع باشبيلية الذى تولى انشاءه قاضى اشبيلية عمر بن عدبس فى سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩/ ٨٣٠م)(٤) • والى عبد الرحمن الاوسط يرجع الفضل كذلك فى اعادة

---

(١) نفس المصدر ص ٤٢٢ .

(٢) نفسه ص ٤٦٠ .

(٣) ابن حيان ، قطعة من المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس ، نشرها الاب ملشور انطونية ، باريس ١٩٣٧ ، ص ٧٤ ، وراجع كذلك
Levi - Provencal,
l'Espagne musulnane an xe siecle, Paris 1932, p. 19, Histoire de l'Espafegne in usnlmane, t. III, Paris, 1953, p. 18.

(٤) طالع النقش التذكارى لانشاء هذا الجامع فى: Ocanan Jeimenez (M.) وقارن
inscripcion fundacional de la mezquita de Ibn Adabbas de Sevilla, al-Andalus, vol. XII, 1947, fasc. I, pp; 145 - 151, Levi - provencal, Inscriptions arabes d'Espagne, 2 Vols, Paris 1931.

انشاء دار الصناعة القوطية باشبيلية بعد غارة النورمان على أشبيلية فى سنة ٢٢٩هـ (١) (٨٤٤م) ، وفى انشاء سور مدينة اشبيلية كذلك (٢).

وفى عهد الامير عبد الله بن محمد رفعت اشبيلية راية الاستقلال،

ولقد توصل الاستاذ أوكانيا خيمنث الى قراءة النقش قراءة صحيحة على النحو التالى : « يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الامير العدل ال (هندى) الامر ببنيان هذا المسجد على يدى (بر) بن عدبس قاضى اشبيلية فى سنة اربع عشرة ومئتين وكتب عبد البر بن هرون » ، وهذه القراءة اصح من قراءة كل من اما دور دى لوســـ ريوس فى ١٨٧٥ ، ١٩١١ ، وليفى بروفنسال فى سنة ١٩٢١ ، ولكنى أرجح ان اسم القاضى هو عمر بن عديس بدلا من عمر بن عدبس الشائع ذكره فى الروايات العربية ، واسم عدبس اكثر شيوعا بين الاسماء العربية من عديس . ومن الجدير بالملاحظة ان النقش التذكارى يخلو من النقط وحروفه من الطابع الكلاسيكى البدائى الذى يذكرنا بالكتابات الكوفية القديمة ، الامر الذى يدعونا الى قراءة الاسم هكذا حدد ابن حيان مدة حكم ابراهيم بن حجاج (المقتبس ، تحقيق منشور ، ص ٨٥) فى حين يخطىء ابن عذارى فى تحديدها فيجعلها قبل ٢٨٨ هـ ويجعل ولاية ابيه عبد الرحمن من ٢٨٨ الى ٣٠١ هـ (٢ ص ١٢٩) بينما يذكر فى ص ١٤٨ اسم ابراهيم بن حجاج بين وفيات عام ٢٩٨ .

(١) السيد عبد العزيز سالم واحمد مختار العبادى ، تاريخ البحريـــة الاسلامية فى المغرب والاندلس ، بيروت .

(٢) ابن القوطية القرطبى ، تاريخ افتتاح الاندلس ، مدريد ١٨٦٨ ص ٦٥ ، وذكـــر ابن القوطية ان الوزراء اشاروا عليـــه ببنيان سور اشبيلية فوجه لذلك عبد الله بن سنان رجل من الموالى الشاميين ، وكان قريب الخاصة بعبد الرحمن بن الحكم وهو ولد ثـــم استقديه وهو خليفة ، ثم حج البيت فقدم من الحج ووافق هذه الحركة فاخرج لبنيان السور باشبيلية واسمه على أبوابها . « ويذكر الحميرى ان سور اشبيلية من بناء الامام عبد الرحمن بن الحكم ، بناه بعـــد غلبة المجوس عليها بالحجر واحكم بناءها » (الحميرى ، ص ٢٠) كذلك اشار معاوية بن هشام القرشى الشبنيسى الى هذا السور الذى امر عبد الرحمن الاوسط ببنائه بناء على توجيه من عبد الملك بن جيب » (ارجع الى الملحق فى كتاب المقتبس فى أخبار بلد الاندلس لابن حيان، تحقيق الدكتور عبد الرحمن على الحجى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٤٤).

وخرجت عن فلك الامارة الاموية بقرطبة وذلك بعد أن تغلب عليها ابو اسحق ابراهيم بن حجاج اللخمى (٢٨٦ — ٢٩٨) * أحد رؤساء اشبيلية وزعمائها من بيت بنى حجاج وكان من أشهر البيوتات العربية فى هذه المدنية ؛ فجبى الامـوال واصطنع الرجـال وارتقى فى درج الجلال (١) ، وكان زعيما قويا بعيد الهمة جميل الذكر ، امتثـل أمراء قرطبة فى اتخاذ بلاط تسوده الأبهة والفخامة ، وكـان يلقد أمـراء قرطبة (٢) فاتخذ لنفسه جندا كما يفعل الامراء رتب لهم الارزاق فكمل فى مصافه ٥٠٠ فارس (٣) ، وكـان لـه باشبيلية قـاض فضـل فى الخصومات ويقوم بالاحكام ، وصاحب مدينة يقيم الحدود ، كما كانت له باشبيلية طرز يطرز فيها على اسمه كما يفعل الامير الاموى (٤) وبالاضافة الى هذا كله استقدم الشعـراء والعلماء من الاندلـس وخارجها ؛ فقد انتجعه شاعر قرطبة الاكبر أبو عمر أحمد بن عبد ربه (٥) كما قصده الشاعر القرطبى محمد بن يحيى القلفاط (٦) ، ووفد اليـه أبو محمد العذرى من الحجار فأكرم مثواه ورفع منزلته (٧) . وذكروا أنه سمع بجارية بغدادية تدعى قمر ، فبذل فى ابتياعها من بغداد أموالا طائلة الى أن استقرت بدار مملكته اشبيلية ، وكانت بارعة الجمـال ، . (٨)

---

(١) ابن الخطيب ؛ كتاب اعمال الاعلام ، تحقيـق ليفى بروفنسـال ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٤ .

(٢) يذكر ابن الخطيب انه كان يضاهي الملوك ، وان حاله حال الملوك مصافا وانعاما (المصدر السابق ص ٣٥) .

(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ ص ٣٧٦ — ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ب ج٢ طبعة ليفى بروفنسـال وكولان ، ص ١٢٧ .

(٥) ابن الابار ، المصدر السابق ص ٣٧٦ — ابن عـذارى ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٧ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٣٧٧ — ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١١٨

(٧) ابن حيان ، المقتبس ، نشر انطونية ص ١٣١ ، ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ١٢٨ .

فصيحة اللسان ، عارفة بالغناء وصوغ الالحان (١) ويذكر المقرى أنها « جمعت أدبا وظرفا ، ورواية وحفظا ، مع فهم بارع ، وجمال رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها » (٢) .

واستمر بنو حجاج يحكمون اشبيلية بعد وفاة ابراهيم بن حجاج فى ٢٩٨ هـ فى شخص ولده عبد الرحمن (٢٩٨ — ٣٠١ هـ) ثم أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج (٣٠١ هـ) الى أن اعتلى الامير عبد الرحمن بن محمد دست الامارة بقرطبة ، ونجح فى لم شتات الاندلس وجمع ما انفرط من عقدها فى عهود أسلافه ، فاستسلم له أحمد بن مسلمة بن حجاج بعد أن حاصرته قواته بقيادة قاسم بن وليد الكلبى صاحب الشرطة وحمد بن ابراهيم بن حجاج شهورا من سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) واستعمل عليها الامير عبد الرحمن عامله سعيد بن المنذر القرشى المعروف بابن السليم (ت ٣٢٦ هـ ويذكر الحميرى انه) هدم سورها وألحق أعاليه بأسافله ، وبنى القصر القديم المعروف بدار الامارة وحصنه بسور رفيع وأبراج منيعة » (٣) وظل ابن السليم يتولاها الى أن استقدمه الامير الى قرطبة ووليها من بعده فطيس بن أصبغ (٤) .

ثم انتثر سلك الخلافة الاموية بقرطبة فى عام ٤٢٢ هـ (١٠٣٠م) وتبع ذلك قيام عدد من الدويلات المستقلة فى جميع أنحاء الاندلس

---

(١) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ١٢٨ ، المقرى ، نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٧ .

(٢) المقرى ، المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٣) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٠ ، ٢١ وقارن ذلك بابن حيان ، المقتبس الجزء الخامس ، نشره شالميتا ، مدريد ١٩٧٩ ، ص ٨٠ ، وابن عذارى ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٤ .

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٦٤ ، ١٦٦

عرفت بدويلات الطوائف ، فتغلب الامراء والرؤساء من البربر والعرب الصقالبة بالبلاد ، وتغلب بعضهم على بعض ، استقل بأمر هذه البلاد ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، فقامت باشبيلية دولـــة بنى عباد أكبر دويلات الطوائف ، وهم الذين عملوا على جمع شتات آل الاندلس ولم شعبهم وتنظيم عصبية أندلسية قوامها العناصر العربية والمولدة والصقلية ، عرف أصحابها بالجماعة ، كان من أهم أهدافهـــا مناهضة الطائفة البربرية (١) • ولم يمض عهد طويـــل حتى كانت مملكة بـــن عباد قد اتسعت اتساعا كبيرا على حساب أمراء البربر والقرب المنترين فى الجنوب والجنوب الغربى من شبه جزيرة الاندلس ، وهـــم بنو برزال بقرمونة ، وبنوافرن برندة ، وبنو دمر بمورور ، وبنو خزرون بأركس ، وبنو يحيى بلبلة ، وبنو الكرى بولبة ، وبنو جهور بقرطبة ، ربنى طينور بمرتله ، ونى طاهر مرسية •

وشهدت اشبيلية فى عصر بنى عباد ازدهار لم تشهده من قبل ، لا فى عصر الرومان ولا فى عهود القوط ، وفاقت سائرا أمصار الأندلس حتى عدت أعظم مدن الاندلس بعد أن تخلت لها قرطبة عن الرئاسة ، ويعبر ياقوت عن ذلك بقوله : « وبها كان بنو عباد ، ولمقامهم بها خربت قرطبة » (٢) • وكان المعتمد بن عباد أندى ملوك الاندلس راحـــة ، ولمقامهم بها خربت قرطبة » (٢) • وكان المعتمد بن عبـــاد أندى ملوك الاندلس راحة ، وأرحبهم ساحة واعظمهم ثمادا ، وأرفعهم عمـــادا ، ولذلك كانت اشبيلية فى زمنه بؤرة الرحال ، وقبلة الامال ، ومركـــز الشعراء ، ومجتمع الادباء ، وبينما كان شعراوءه يعبرون بقصائدهم

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١١٦ ، وراجـــع ة السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج ١ ، بيروت ١٩٧١ ص ١٤١ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة اشبيلية .

(٣) الحلل الموشية ، تحقيق د . سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ١٩٧٩ ص ٩١ — ٩٧ . وراجع ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ص ٣١٩ .

الرقيقة عن حياة الترف والرخاء التى نعمت بهما اشبيلية فى عهـده ، كان بناؤوه يعبرون بمنشآتهم الفخمة موزونة الابعاد ومنسقة الجدران عن الازدهار العمرانى الذى واكب النهضة الحضارية فى مملكته ، ولكن لم يتح لاشبيلية أن تنعم طويلا فى ظل بنى عباد ، اذ سرعان ما أسقط المرابطون عروش الطوائف ، وضموا الاندلس الى دولتهم فى المغرب . ولم ينس المرابطون رغم جفدتهم وخشونتهم العسكرية ، وفى زحمة مشاغلهم الحربية واستغراقهم فى الجهاد أن يمهروا اشبيليـة بسور من الملاط اتسع ناطقه فشمل أرباطها الغربية كربض مقرانة يمنع عنها مطامع الارغونيين والقشتاليين ، خاصة بعد الغزوة الجريئة التى قام بها الفونسو الاول المحارب ملك أرغون فى سنـة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) واكتسح فيها أراضى الاندلس حتى غرناطة (١) .

الا أن العصر الذهبى فى تاريخ اشبيلية لم يبدأ بحق الا بدخول الموحدين فى الاندلس ، فقد اتخذها خلفاء الموحدين حاضرة لهـم فى

---

(١) عن النشاط المعمـارى لموحدين فى اشبيلية راجـع : عبد الملك بن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، تحقيق عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤ — ابن عذارى ، البيان المعرب ، القسـم الثالث ، تحقيق امبروسيد اويثى ميراندا ومحمد بن تاويت ، تطوان ١٩٦٣ — ابن ابى زرع ، كتاب الانيس المطرب روض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الجزء الثانى طبعة تورنبرج او بسالة ١٨٤٣ ،

Henri Terrasse, L'art Hispano maures euc, Paris, Paris 1932.
Henri Terrase, Sanctuaires et Forteresses alu ohades. Paris 1932.
L. Torres «Balbas, Ars Hispaniae, Vol. IV, Madrid

السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والتصور فى الانيدلس . مجموعة اقرا ١٩٥٨ — السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ : المغرب الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٦ .

الاندلس ، فاستردت عظمتها وبلغت فى عهودهم ذروة توسعها العمرانى ، وعمرت بالاسواق والمتاجر والقصور والعمائر (٢) . فأبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن كان حريصا على تجميل حاضرة دولته فى الاندلس ، فانطلقت فى عهده باشبيلية حركة التمصير والتعمير وترتب على ذلك ازدياد نشاط الموحدين المعمارى ، وازدانت اشبيلية على عهده بالمنشآت المتنوعة والمتنزهات والمنيات ، وأبو يوسف يعقوب المنصور كان مسرفا فى تزيين حاضرته وتنظيم تخطيطها سيما بعد انتصاره على جيوش قشتالة فى موقعة الارك (١٠ يوليو ١١٩٥ م) . وظلت اشبيلية تحظى برعاية الموحدين خليفة بعد خلفة الى أن ضعفت دولة الموحدن فى أعقاب هزيمة العقاب وتساقط قواعد الاندلس التى كانت تؤلف خط الدفاع الامامى لاشبيلية ، ثم دخلتها جيوش قشتالة فى ٢٣ ديسمبر ١٢٤٨ بعد حصار دام ما يقرب من ١٧ شهرا .

كانت أشبيلية منذ منتصف القرن الحادى عشر وحتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى من أعظم مدن العالم ، وقد أقر الاخباريون المسلمون والمسيحيون على السواء بتفوقها وبالمكانة السامية التى كانت تتبوأها فى هذه الفترة ، لقد بالغ مؤرخو العرب فى وصف روائع اشبيلية وما كانت تنفرد به دون غيرها من حواضر الاندلس ، وكانت على حد قول بعضهم عروس بلاد الاندلس وقاعدتها « مدينة الادب ، واللهو والطرب ، وهى على ضفة النهر الكبير عظيمة الشأن ، طيبة المكان ، لها البر المديد والبحر الساكن والوادى العظيم (١) » ، وكانت اشبيلية وفقا لما أورده الادريسى « مدينة كبيرة عامرة ، ذات أسوار حصينة ، وأسواق كثيرة وبيع وشراء ، وأهلها مياسير ، وجل تجاراتهم بالزيت يتجهز به الى أقصى المشارق والمغارب برا وبحرا ... » (٢) .

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٩٣ .
(٢) الادريسى ، صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، ماخوذة من كتاب نزهة المشتاق اختراق الافاق ، ليدن ١٩٦٨ ، ص ١٧٨ .

ويمتدحها ياقوت الحموى فيقول « مدينـــة كبيرة عظيمـــة ، وليس بالاندلس اليوم (أى فى عصره) أعظم منها ، تسمى حمص أيضا ، وبها قاعدة ملك الاندلس وسريره » (١) . واعتبرها ابن سعيد المغربى فى عصر الموحدين احدى القواعد الكبرى الباقية فى أيدى المسلمين (٢). ويبالغ الشقندى فى وصف عظمتها وتبجيل محاسنها فيقول : « امـا اشبيلية فمن محاسنها : اعتدال الهواء وحسن المبانى ، وتزيين الخارج والداخل ، وتمكن التمصر . وأمـا مبانيها فقد سمعت عـن اتقانها واهتمام أصحابها بها ، وكون ديارها لايخلو من الماء الجارى والاشجار المتكاثفة ، كالنارنج والنيم والليمون والزنبوع وغير ذلك .. » وعـن علمائها يضيف قائلا : « وأما علماؤها فى كل صنف رفيع أو وضيع جدا أو هزلا فأكثر من أن يعدوا ، وأشهر من يذكروا ، واما ما فيها مـن الشعراء والوشاحين والزجالين فما لو قسموا على بر العدوة ضـاق بهم ، والكل ينالون خير رؤسائها ورفدهم » . ويختتم وصفه لمزايـا أشبيلية ومحاسنها معبرا عن عظمتها وسمو مكانتها بقوله : « وما مـن جميع ما ذكرت فى هذه البلدة الشريفة الا وقصدى به العبارة عـن فضائل جميع الاندلس ، فما تخلو بلادهـا من ذلك ، ولكن جعلـت أشبيلية ، بل الله جعلها أم قراها ، ومركز فخرها وعلاها اذ هـى أكبر مدنها ، وأعظم أمصارها » (٣) . ويذكر ابن بسام أنها « عـلى قدم الدهر كانت قاعدة هذا الجانب الغربى من الجزيرة وقراره الرياسة ومركز الدول المتداولة ... » (٤) .

---

(١) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مادة أشبيلية .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٢١ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ، ٢٠٠ .

(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، محاسن اهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس قسم ٢ مجلد ١ ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ١١ .

وكما امتدحها المسلمون فى مصنفاتهم وبالغوا فى ذكر فضائلها وتسجيل محاسنها ، حظيت باعجاب المسيحيين ، فأسرفوا فى ابراز روائعها ، وأغرقوا فى امتداح معالمها ، واعتبروها فى مصاف المدن العظمى فى العالم ، فهذا ريكاردودى سان جرمان يقرنها برومة والقسطنطينية ويعدها أكثر مدن العالم عمرانا (١) ، وهذا بابلودى لسبينورا دى لوس مونتيروس يؤكد أنه لم تكن تضاهيها — لعظمة عمائرها وفخامتها — أى مدينة فى العالم باستثناء رومة العظمى (٢) . وعندما يشير دييجو أورتيث دى ثونييجا الى سقوط قرطبة فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة يعتبره أعظم مدن العالم بعد رومة والقسطنطينية واشبيلية (٣) .

وهكذا كانت اشبيليه فى نظر المسلمين والمسيحيين على السواء من أجل مدن العالم الوسيط ، وقد امتدحها الكثيرون ممن أرخوا لاسبانيا الاسلامية أمثال العذرى (٤) وابن غالب (٥) ، وصاحب منهاج الفكر (٦) وابن مفلح (٧) والشقندى وغيرهم كما مدحها أيضا خستوشو (٨) ورود

---

(١) Italia Sacra, to III, A pud. Repartimiento de Seirlla, estudies y edicion preparada por Julis gonzalez, t. I. Madrid 1951. p.

(٢) Pablo de Espinosa de los Monteros, Antiguedades y grandeza de Sevilla, p. 22.

(٣) Zuniga (Diego Ortiz de) : Anales Eclesiasticas y seculares, t. I, Hadrid 1796, p. 131.

(٤) العذرى ، ترصيع الاخبار وتنويع الاثار ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ١٩٦٥ اص ٥ .

(٥) ابن غالبة الاندلس ، قطعة من كتاب فرحة الانفس نشرها الدكتور لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٣ .

(٦) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٥١ و فى هذا النص يذكر انها « من احسن مدن الدنيا » .

(٧) يسمى ابن مفلح اشبيلية « عروس بلاد الاندلس لان تاجها الشرف وفى عنقها سمط النهر الاعظم » . المقرى ، ج ١ص ١٩٣ .

(٨) Gestoso, Sevilla mounmentaly artistica, t.I, pp. 15, 16.

يجو كارو (١) ولكنها لم تلق من التمجيد والتفخيم مثل ما مدحها بـه الملك الفونسو العاشر فى تاريخه العام لاسبانيـا حيث يصفهـا دائما بالمدينة النبيلة (٢) •

هذه المدينة العظيمة التى أجمع المؤرخون على تفوقها عـلى مدن الاندلس بل العالم ، وأسرفوا فى ذكر فضائلها وابراز مفاتنها تجـاوزت شهرتها الافاق لكثرة منازهها ومغانيها ، وروعة قصورها وتأنق مبانيها ، فما أكثر أسماء القصور التى سجلها المعتمد بن عباد فى شعره الذى ضمنه ذكرياته وأحزانه ، وما أبدع ما ردده منها ابن زيدون الوزير فى بعض قصائده • وقد رأيت أن أقدم فى الصفحات التالية دراسة شاملة تاريخية وأثرية لقصور أشبيلية فى العصر الاسلامـى ، راعيت فيهـا الترتيب الزمنى مع الالتزام بنوعيها الادارى والترفيهى •

أولا — قصر الامـارة

أ — قصر الامـارة الاول :

قبل أن يرحل موسى بن نصير الى المشرق اختار مدينة اشبيلية مقرا للامارة ، وعهد الى ابنه عبد العزيز بولاية الاندلس ، فاتخذ عبد العزيز مسكنه فى قسم من كنيسة ربينة Santa Rufina حيث أقام تجاهها مسجدا عرف بمسجد ربينة (٣) كان يشرف على مرج اشبيلية ، وفيه قتل عبد العزيز فى سنة ٩٧ هـ ، ويذكر ابن القوطيـة أن آثار دمائه كانت ماتزال واضحة داخل هذا المسجد حتى عهد قريب من عصر ابن القوطية

---

(2) Caro (Todrigo) : Antiguedades y principado de la ilustrisima ciudad de seirlla, Seirlla, 1934.

(3) Cronica General de Espana, Alfonson X, ed. Menendez Pidal, pp. 768 - 769.

(٣) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ١١ .

(القرن الرابع الهجرى) . ومن المعتقد ان كنيسة سانا رفينة أو ربينة المذكورة التى اتخذها عبد العزيز بن موسى دارا للامارة كانت تقع قريبا من المسجد المعروف بجامع عمر بن عدبس .

ويبدو ان عمال اشبيلية من قبل امراء قرطبة كانوا يقيمون فى قصر الامارة الذى كان يطلق عليه اسم القصبة ، ولدينا ما يشير الى وجود هذه القصبة قبل غزوة النورمان الاولى لاشبيلية فى سنة ٢٢٩هـ ، فعندما تمكنت القوة الاسلامية التى وجهها الأمير عبد الرحمن الاوسط الى اشبيلية من رد النورمان على أعقابهم ، ودخل ورزاء الامير اشبيلية ، الفوا عاملها محصورا فى قصبتها » (٢) . والظاهر أن القصبة المذكورة كانت تشغل موضعا قريبا من الطرف الجنوبى الشرقى من اشبيلية الرومانية غير بعيد من الموقع الذى كان يقوم فيه جامع ابن عدبس بدليل أنه عندما اشتعلت نار الفتنة فى اشبيلية فى عهد الامير عبد الله فى سنة ٢٧٦ هـ (٣٨٨٩) اتخذ أميه بن عبد الغافر عامله على اشبيلية من القصر حصنا يتحصن فيه من بنى خلدون وبنى حجاج » (٣) . فقتطع بداخل اشبيلية حوزة ، واخرج سور القصر ومد من ركنه القبلى سورا بلغ طوله مائتى ذراع نحو الشرق ، كما مد سوره من جهة الشمال مائتى ذراع أخرى نحو الغرب ، وأدخل بذلك المسجد الجامع داخل نطاق السور ، محولا قصر الامارة الى قصبة ، بحيث أصبح بابها المعروف بباب حميدة ينفتح الى مقبرة الفخارين (٤) . ونستدل من حوادث اشبيلية فى هذه السنة أن القصر كان يقع الى الشمال من مسجد

---

(١) ابن القوطية ، تاريخ الاندلس ، ص ١١ .
(٢) ابن القوطية القرطبى ، تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٦٤ .
(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق انطونية ملشور ، ص ٧٧ ، وراجع التفاصيل فى تاريخ المسلمين واثارهم فى الاندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٧٧

الطراكة (١) ، وانه كان قريبا من جامع ابن عدبس ، وانه كان مزودا بروضة دفن فيها هشام بن عبد الرحمن الاوسط أحد أولاده (٢). كذلك نستدل من حوادث التى اقترنت باسترجاع الخليفة عبد الرحمن الناصر لاشبيلية فى سنة ٣٠١هـ أن هذا القصر كان يضم مجلسا يعرف بالاخيضر (٣) .

أما جامع ابن عدبس المذكور فقد تحول بعد سقوط اشبيلية فى يد فرناندو الثالث فى سنة ١٢٤٨ الى كنيسة سان سلفادور ، ثم هدم المسجد برمته فى سنة ١٦٧١ وأقيمت مكانه الكنيسة الحالية التى تم بناؤها فى سنة ١٧١٢ م . اما المئذنة فقد تهدم جزؤها العلوى عقب زلزال سنة ١٣٥٦ ، فأقيم مكانه طابق للنواقيس ، ولم يتبق من المئذنة الاسلامية سوى القسم الادنى حتى ارتفاع ٩٫٥٠ مترا (٤) . وتقع اثار هذا الجامع حاليا فى حومة قريبة من منتصف شارع سيربيس احد الشوارع

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧٥
(٢) نفس المصدر ص ٧٩
(٣) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الخامس ، تحقيق بدرو شالميتا ، مدريد ١٩٧٩ ص ٧٩ واسم الاخيضر يطلق ايضا على قصر او حصن اقيم فى العصر العباسى الاول ويرجع تاريخ بنيانه الى منتصف القرن الثانى للهجرة (على محمد مهدى ، الاخيضر ، بغداد ١٩٦٩ ص ٧١) . ومن المعروف ان امراء بنى امية اطلقوا على مجالس قصورهم اسماء قصور عباسية اقيمت فى العراق من ذلك قصر التاج الذى ورد ذكره فى جملة مجالس قصر الامارة بقرطبة ويذكرنا بقصر التاج العباسى الذى اقامه الخليفة المعتضد فى بغداد ، وكذلك قصر المعشوق بقرطبة يذكرنا بنظيره فى سامراء وكذلك قصر البديع وقصر المختار بقرطبة وهما اسمان لقصرين من قصور العباسيين فى سامراء (راجع السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج ١ ص ١٩١) ويتضح ان استخدام الامويين لاسماء قصور عباسية انما يعكس التأثيرات العراقية فى البناء الحضارى الاندلسى .
(٤) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين واثارهم فى الاندلس ، ص ٤٠٢ .

الرئيسية باشبيلية الحديثة ، وهو شارع مازال يحتفظ فى تخطيطه بنفس تخطيط المحجة العظمى القديمة .

أما القصر فلم يتبق منه « أى أثـر » فقد ضاعت معالمـه بسبب التطور العمرانى الحديث الذى قضى على معظم الابنية الاسلاميـة فى اشبيلية ، ولكن من السهل تحديد موقعه بالقرب من كنيسة سان سلفادور الحالية .

ب — قصر الامارة الثانى المعروف بالقصر القديـم :

ذكر ابن عذارى المراكشى أن الحاجب بدر بـن أحمد تمكن مـن دخول اشبيلية بعسكر الامير عبد الرحمن بن محمد دون قتال (١) فى ١٩ جمادى الاولى سنة ٣٠١ ﻫ (٢) (٩١٣م) ، فى حين يؤكـد ابن حيان أن ذلك تم يوم الاثنين لخمس خلون من جمـادى الاولى من نفس السنة (٣) ، فأقام بها خمسة عشر يوما كاملا ثم خرج قافلا عنها الى قرطبة يوم الاثنين لاحدى عشر ليلة بقيت من جمادى الاولى أى فى يوم ١٩ جمادى الاولى (٤) وهو التاريخ الذى يضعه ابن عذارى لدخوله اشبيلية .

وبينما يشير ابن عذارى الى نكوث محمد بن ابراهيم بن حجاج لطاعة الامير بعد أن استسلم له (أى للامير) أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج ، وتغيره له ، ثم امتناعه بقرطبة ، وقيامه بمهاجمة اشبيلية بعد ذلك منتهزا تهدم بعض سورها ، وتصدى عاملها له وارغامه له على

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٣ .
(٣) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الخامس ص ٧٩ ، ويؤيـد الحميرى فى الروض المعطار هذا التاريخ وص ٢٠ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٨٠ ، ٨١

الانسحاب الى قرمونة (١) ، (بمعنى أن سور اشبيلية كان مهدا فى بعض اجزائه وانه طمع فيها لذلك لولا أن عامل اشبيلية تمكن من ايقاع الهزيمة به وارغمه على الرجوع) يؤكد ابن حيان فى المقتبس ان سعيد بن المنذر القرشى الذى ولاه عبد الرحمن الناصر عاملا على كورة اشبيلية وصل اليها بعد سبعة أيام من دخول الحاجب بدر بن أحمد واستقراره باشبيلية ، وان هذا العامل دعا الحاجب الى هدم سور مدينة اشبيلية ، فكرة بدر ذلك ، وشاور فيه وجوه من معه من رجال السلطان وأهل ولايته اشبيلية ، فاختلفوا عليه . وقال فريق منهم هى مدينة ساحلية لايؤمن عليها من قبل البحر ، وبقاء سورها أحرم مع أنه من بنيان عبد الرحمن بن الحكم ، فلج سعيد بن المنذر فى هدمه ، وقطع على صواب اباحة المدينة ، وأن ذلك أحوط على السلطان وأحسم لطمع من يبغى الفتنة فساعده الحاجب بدلا على ذلك ، وجمعت الايدى على هدم أسوارها فسويت بالارض ، ونكس عوامها رقابهم ويئسوا من الفرقة » (٢) . ثم يتابع ابن حيان عرضه لموقف محمد بن ابراهيم بن حجاج صاحب قرمونة بعد ان تنكب على الناصر ، فيذكر أنه تحرك فى قواته الى اشبيلية منتهزا عورتها أي خلوها من الاسوار ، فهجم على مدينة اشبيلية صباح يوم ٣ من رجب سنة ٣٠١هـ « وهى بهدم أسوارها عورة » فحاربه سعيد بن المنذر القرشى عامل الامير عبد الرحمن الناصر داخل أرباضها قسما من النهار ، وأرغمه على العودة خائبا من حيث أتى (٣) .

---

(١) فى ذلك يقول ابن عذارى : « خرج محمد بن حجاج من قرموية بجيشه ، فوصل اشبيلية عند الصباح ، فهجم عليا وكان بعض صورها مهدما ، فطمع فيها ، فخرج اليه العامل عليها من قبل السلطان فهزمه عنها ، فرجع الى قرمونة » (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٣١) ومع ذلك ففى موضع آخر يذكر ابن عذارى ان الحاجب بدر هدم اسوارها (ص ١٦٤) .

(٢) ابن حيان ، المصدر السابق ص ٨٠ .

(٣) نفسه ص ٨٢

ولانستبعد أن يكون سعيد بن المنذر ، عامل اشبيلية ، قد هدم فى جملة ما هدمه من اسوار باشبيلية ، قصر الامارة المجاور لجامع عمر بن عدبس ، وهو نفس القصر الذى كان أمية بن عبد الغافر الوالى السابق ، قد حوله الى قصبة منيعة ليحتمى بداخلها من هجمات بنى خلدون وبنى حجاج ، اكتفاء بقصر الامارة الجديد الذى اعتزم المشروع فى بنائه فى موقع استراتيجى هام من اشبيلية أكثر قربا من الوادى من الجانب الشرقى لاشبيلية . ونستدل على ذلك من قيامه ببناء دار الامارة الجديدة التى يسميها كل من البكرى والحميرى « القصر القديم » (١) قياسا الى قصر الامارة الاعظم الذى أسسه بعد ذلك المعتضد بن عباد وأضاف فيه ابنه المعتمد قصوره المشهورة : المبارك والثريا والزاهى . ومن المرجح أن اقدام سعيد بن المنذر على هدم القصبة القديمة انما حدث بعد شروعه فى بنيان القصر القديم ، وقد يكون هذا الهدم قد نفذ فيما بعد فى عصر لاحق . ومن المعروف عبد الرحمن الناصر استقدم سعيد بن المنذر من اشبيلية وولى عليها فطيس بن اصبغ فى شعبان من سنة ٣٠١هـ (٢) ، أى بعد شهرين ونصف من ولايته عليها فاذا كانت المصادر العربية تنسب القصر القديم وتحصينه بسور صخرى مربع وابراج منيعة لسعيد بن المنذر ، فان هذه النسبة لايمكن ان تلحق به دون مبررات ، ونعتقد لذلك أن سعيد بن المنذر شرع بالفعل فى بناء القصر القديم وتزويده بالسور الحجرى والابراج المنيعة خلال هذه المدة القصيرة ، وأن عامل اشبيلية الجديد — فطيس بن أصبغ — هو الذى استكمل بنيان القصر المذكور مدة ولايته على اشبيلية التى استمرت فيما يظهر ١٤ سنة (من شعبان سنة ٣٠١ هـ الى شوال سنة ٣١٥ الذى يسجل تاريخ توليه الوزارة) (٣) .

---

(١) البكرى ، جغرافية الاندلس واوروبا ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجى ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١١٤ .
(٢) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الخامس نشر شالميتا ، ص ٩٨ .
(٣) نفس المصدر ص ٢١٤ .

ويبدو ان الموقع الذى اختاره سعيد بن المنذر لانشاء القصر القديم أو دار الامارة المستحدثة كان فى الاصل حصنا لعلة أقيم فى عهد عبد الرحمن الاوسط فى جملة الانشاءات التى أمر عبد الله سنان بتنفيذها بعد غزوه النورمان فى سنة ٢٢٩ هـ ، فقد كانت العادة ان تحمى مدن الاندلس قصاب تقع فى مواقع استراتيجية منها بهدف تمكن الدفاع عنها حتى بعد سقوط هذه المدن فى أيدى الغزاة ، والموقع الذى تخيره سعيد بن المنذر مشروعه من المواقع الهامة التى يمكن ان تتحكم فى الدفاع عن المدينة فى أوقات الخطر أو الحصار ، واليه امتد العمران الاشبيلى فى عصر الطوائف والعصور التالية . ويؤيد اعتقادى فى أن الموقع الذى اختير لاقامة مشروع ابن المنذر كان فى الاصل حصنا أو قلعة ان المهندس الاثرى دون فيلث ارناندث تمكن من تمييز قطاع صغير من سور من الحجر يشبه فى بنائه الى حد كبير نظام البناء فى قصبة ماردة وذلك داخل مجموعة القصر الحالى شرقى القصر الذى تم انشاؤه زمن الملك الشقتالى دون بلدو الاول (١) ، وقد سماه المهندس المذكور انذاك السور الشامى (El Muro siriaco) اعتقادا منه بأنه البقية الباقية من السور الذى أنشأه عبد الله بن سنان الشامى زمن الامير عبد الرحمن الاوسط أو أنه لـه علاقة بقصر الامارة الاول الذى تحول فيما بعد الى قصبة والواقع كما سبق أن أوضحنا ـ ان القصبة المذكورة كانت تقع قريبا من مسجد عمر بن عدبس ، وعلى هذا الاساس لا يمكن ان يرجع هذا القطاع من السور الى القصبة المذكورة ، كما ان سور اشبيلية الاسلامى الاول لم يكن يطوق الا المركز العمرانى القديم ولم يكن يصل بأى حال من الاحوال الى منطقة القصر الحالى . ولهذا السبب نستبعد ان يكون هذا القطاع المذكور جزءا من سور عبد الله بن سنان ، ونعتقد بالتالى فى احد أمرين الاول اما أن يكون بقية من

3) Jose Guerrero Lovillo, al - Qasr al - Mubarak, Sevilla, 1974, p. 99.

قلعة كانت قد اقيمت فى عصر عبد الرحمن الاوسط فى هذا الموضع خارج اشبيلية للدفاع الخارجى عنها أو ان يكون لها علاقة بأحد قصــور بنى عباد ، ومن المعروف أن بنى عباد اعادوا استخدام احجار السور المتخرب الذى يرجع الى عهد عبد الرحمن الاورط فى بنيان قصورهم .

ويذهب صديقى الباحث الاثرى الاستاذ جبريرولوبيو — ونحن نؤيده فى ذلك — ان جزءا من القصر القديم الذى شرع سعيد بن المنذر فى بنائه ، وتم بناؤه فى عهد خلفه ، مايزال قائما اليوم ، ويتمثل هــذا الجزء فى التحصينات المحيطة ببهو البنود الحــالى المطلة عــلى ميدان النصر (١) . ومما يؤكد هذا الرأى الباب الذى تم اكتشافه اخيرا ، (٢) وكان ينفتح فى الجدار الغربى من بهو البنود السابق ذكره ، ثم اغلقت فتحته فى عصر لاحق ، وفتحة الباب المذكور تتخذ شكل عقد حدوة الفرس تجاوز كثيرا نصف الدائرة ، تستيجه مركزى على نسق العقــود التى

José Querrero Lovillo, op. cit, p. 90.

(١) كانت الحوانيت السياحية تتوزع على جانبى الشارع الضيق المواجه للسور الغربى من بهود البنود ويسمى حاليا شارع دون خواكين روميرو ميروبى ، بحيث تحجب رؤية تفاصيل السر المذكور ، الى أن امــر العالم الاثرى الاشبيلى الصديق المرحوم دون عواكين روميرو ميروبى مدير قصور اشبيلية منذ ما يقرب من ٢٥ عاما بازالة هــذه الحوانيت المساندة للسور ، فتكشف بذلك بنيان السور المذكور ، وامكن مشاهدة هذا الباب المسدود . وللاسف لم يتقدم اى باحث اثرى منذ ذلك الحين على دراسة هذا الكشف الهام ولقد تنبهت منذ سنوات مضت وبالذات منذ سنة ٩٧٥ — عندما زرت اشبيلية لالقاء سلسلة من المحاضرات فى جامعتها بدعوة منها — الى اهمية هذا الكشف ، وعزمت آنذاك على الكتابة عنه ، وواتتنى الفرصة فى سنة ١٩٧٨ وحتى ١٩٨٠ لذلك عندما انتدبت مديرا للمعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريــد مستشارا ثقافيا للسفارة المصرية فعاودت الزيارة عدة مرات ، وكتبت فى ١٩٧٩ بحثا عن تحقيق اسماء قصور بنى عاد باشبيلية الواردة فى شعر ابن زيدون ، بمجلة أوراق التى يصدرها المعهد الاسبانى العربى للثقافة ، العدد الثالث ، سجلت فيه اشارة الى هذا الاكتشاف (ص ٣٢ — ٣٤)

التى نشهدها فى الابواب الخارجية لجامع قرطبة ، ويرجع تاريخ بعضها الى عصر الامارة ، وتطوق العقد المذكور طرق مربعة الشكل (أو تربيعية على حد التسمية الاسبانية arbea) تبرز مع وجه البناء عن العقد وطبلته . وبينما يعلو هذا العقد عقد مخفف للضغط نصف دائرى تتعاقب فيه سنجات ضخمة وأخرى رفيعة ، يقطع طبلة العقد المتجاور عتب أفقى مسنج . ومنبتا العقد يرتكزان على حداريته قائمتين على عضادتين من نفس بناء السور .ومن الجدير بالملاحظة ان مداميك البناء فى السور الذى ينفتح فيه الباب المعقود تنتظم على أساس آدية وشنادى وهو نظام بنائى أقدم عهدا من النظام الشائع فى عصر الطوائف ، ويتفق مع طريقة البناء التى نطالعها فى جامع قرطبة . وطبلة عقد الباب أكثر انخفاضا فى مستواها من وجه العقد ، والعقد بوجه عام يتشابه كثيرا مع عقد باب سان ميجل المعروف بباب الامير (ويرجع تاريخه الى عصر الامير محمد وكان يشرع الى المقصورة القديمة) ،وعقد باب سان استيبان المعروف بباب الوزراء . وينحصر الخلاف فى ان العتب فى بابى قرطبة المذكورين يمتد تحت طبلة العقد فى حين يتوسط فى اشبيلية الطبلة . واعتقد أن هذا الباب الاشبيلى بفتحته المغلقة ، والاسوار المتصلة به ، هو البقية الباقية من قصر الامارة القديم الذى أقيم فى بداية عهد الامير عبد الرحمن بن محمد الملقب فيما بعد بعبد الرحمن الناصر لدين الله ، وواضح من فتحة العقد ، وطريقة تسنيجه المركزى ، وشكل طرته المحيطة بقوسه ، وطريقة توزيع مداميك البناء ، أن الاسلوب المتبع فى البنية أقدم عهدا من أسلوب البناء فى مدينة الزهراء ، بل وفى عقود صومعة جامع قرطبة ، وفى نفس الوقت أكثر تطورا من عقود عصر الامارة ، وأعتقد انها مرحلة انتقالية بين عصر الامارة وعصر الخلافة ، الامر الذى يتفق تاريخيا مع الفترة التى أقيم فيها القصر القديم باشبيلية فى عصر عبد الرحمن الناصر .

ويمتد السور يمين هذا الباب ويساره ، وتكتنفه أبراج مربعة

الشكل ، تتميز اجزاؤها السفلى بنفس اسلوب البناء فى جدران البـاب المذكور (انظر الاشكال المرفقة) كما تتسم بقدمها وضخامة احجـام احجارها وصلابتها ، فتصل كتلة الحجر أحيانا الى ٧٥ سم طولا و٥٠ سم ارتفاعا ، وتتناوب هذه الكتل الضخمة فى كثير من الاحيان مع كتل تتوزع عرضيا متبعة النظام المعروف بآدية وشناوى • ومظهر الضخامة والصلابة اللذين تتميز بهما هذه الابراج وما يتصل بها من بدنات السور تتفق تماما مع الوصف الذى سجله كل من البكرى والحميرى لبناء هذا السور اذ ورد فى وصفهما ما يلى : « وحصنـه (أى حصـن القصر) بسور صخر رفيع وابراج منيعة » •

ج ــ القصر المستحدث فى عهـد المعتضد باللـه أبى عمر وعبـاد بن اسماعيل (٤٤٣ ــ ٤٦١هـ) :

يغلب على الظن أن قصر الامارة القديم (ونعنى به قصر سعيد بن المنذر) ظل فى عصر الفتنة التى أعقبت سقوط الخلافة بقرطبة مقـرا للقاسم بن حمود وولده محمد (١) ، فلما تمكن أهل اشبيلية من اغـلاق ابواب مدينتهم فى وجه حمود (٢) ، وحاصروا ابنـه محمد بن القاسم القصر ، الى أن رضى منهم بتسليم ابنه مع من كان معه من الحراس ، ورحل بهم الى شريش (٣) ، اتفقوا على تقديم قاضيهم أبى القاسـم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمى (٤) يرجعون اليه أمرهم ، وتجمع

(١) العذرى ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ عصر الطوائف ، تحقيـق ليفـى بروفنسال ، باريس ١٩٣٠ ص ١٣٤ ، ١٩٦ •

(٣) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ، قسم ١ ، مجلـد ٢ ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ١٧ .

(٤) وجده عطاف نعيم دخل بالاندلس فى طالعة بلج بـن بشر القشيرى ، واستقر مع بنية فى قرية يومين من اقليم طشانة من ارض اشبيلية (ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٥) .

به كلمتهم ، لكياسته وحكمته وبعد مرقى همته ، وسعه صدره وحسن تدبيره ، ولكنه تهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد فأشرك معه فى الامر اعوانا وشركاء كان لايقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث حدثا الا بمشورتهم ، هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، ومحمد بن الالهانى ، وأبوا لاصبغ عيسى بن حجاج الحضرمى ، وابو محمد عبد الله بن على الهوزنى (١) ، وقيل أن شركاءه ثلاثة هم : الزبيدى وابن عباد وعبد الله بن مريم وانهم كانوا يحكمون فى القصر طوال اليوم ، وينفذون الكتب تحت ثلاثة خواتم وينصرفون فى نهاية اليوم ، (٢) وواضح ان القاضى أبا القاسم محمد انما اشركهم معه فى أمور اشبيلية ليروض بهم الامور ويستميل العامة الى أن يضرب ضربته وينفرد بالامارة ممتثلا فى ذلك رسم ابن يعيش صاحب طليطلة (٣) . وقد أثبت ابو القاسم محمد بن عباد براعة فى ادارة شؤون اشبيلية ، ولم يلبث أن استقل بالامر دون شركائه وأسقط جماعتهم فى سنة ٤١٤هـ (١٢٠٣م) ثم رأى ان يستند فى امارته على سند يدعمه فى نظر العامة ، ويمكن به نفوذه بين ملوك الطوائف ، فاستقدم رجلا يشبه الخليفة هشام المؤيد ، زعم انه اتخذ اشبيلية بدلا من قرطبة مقرا لخلافته ، واحتفل بقدومه ، وأنزله بقصر اشبيلية فى سنة ٤٢٦ هـ (١٣٠٤م) ، ومع ذلك فلم تسلم اشبيلية من اعتداء قام به كل من زهير العامرى وحبوس بن ماكسن

---

(١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق الاستاذ محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ، ١٩٤٩ ص ٩٤ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٣١٥ . وذكر ابن عذارى فى موضع آخر انهم كانوا جماعة منهم بنوابى بكر الزبيدى النحوى ، وبنو مريم ، وبنو العربى وغيرهم من نظرائهم .

(٣) نفسه ، ص ١٩٦ — ابن الابار ، الحلة السيراء ص ٣٧ .

(٤) استولى على امور طليطلة عند قيام الفتنة نفر من رؤسائها منهم ابن مسرة ومحمد بن يعيش المذكور وسعيد بن شنظير ويعيش بن محمد بن يعيش الذى انفرد فى نهاية الامر بالسلطان (راجع الحلة السيراء لابن الابار ، ج ٢ ص ٣٧ هامش ٥ للدكتور حسين مؤنس) .

الصنهاجى اللذين هاجما اشبيلية فى ذى القعدة سنــة ٤٢٧هـ وأحرقــا طريانة [١] .

وهكذا ظل قصر الامارة الذى بناه سعيد بن المنذر مقــرا للقاضى ابن عباد الذى استقدم شبيه هشام المؤيد سواء من قلعة رباح فى [٢] رواية او من قرية من قرى اشبيلية حيث كان يؤذن فى مسجدها ويعمره ويتعوف من العمل فى الحلفاء ، فى رواية أخرى [٣] ، وانزله ابن عبــاد معه فى القصر [٤] ، اذ ليس لدينا من النصوص ما يؤكد قيام هذا القاضى ببناء قصر جديد للامارة قبل انفراده بالامارة ولكن من المعتقد ان ابنه ابا عمر وعباد المعتضد بالله (٤٣٣ — ٤٦١ هـ) هو الذى انشــأ قصرا جديدا للامارة لعله دار الامارة العبادية [٥] ليتخذ مقر له [٦] ، فى حين ترك القصر القديم لشبيه هشام الذى توفى ونستدل عــلى انشــاء هذا القصر العبادى المستحدث من وصف البكــرى (ت ٤٨٧) للقصر الاموى بالقديم ومعنى ذلك وجود قصرين احدهما حرف بالقصر القديم

---

(١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٩١ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢١٥ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق د. احسان عباس ج ٥ ص ٢٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٩ ، ابن الخطيب ، كتاب اعمال الاعلام ، طبعة بيروت ص ١٥٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢١٥ .

(٥) كان المعتضد بالله عباد رغــم استبداده وسطوتــه وكثرة جرائمــه السياسية التى سجلها عهده « لم يصر عــن الهمم العليــة والرتب الملوكية ، فابتنى القصور السامية ، واعتمر العمارات المغلة ، واقتنى الاعلام النفسية » (ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٠٥ — ابــن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(٦) وفى قصر المعتضد هذا دفنه ابنه المعتمد فى نفس تربة جــده القاضى محمد بن اسماعيل (ابن الابــار ، الحلة الســيراء ، ج ٢ ص ٥٣) ونستنتج من ذلك ان هذا القصر كان يضم روضة أو مقــرة لاصحاب القصر والهم ، على نحو ما كان معروفا فى قصر الخلافــة بقرطبة ، وروضة الحمراء بغرناطة .

وهو القصر الذى ابتناه ابن المنذر والثانى القصر المستحدث الذى تظن انه من بناء المعتضد ولم يفصح عنه البكرى وان كان قوله يحمل ضمنا انه كان قائما فى زمنه • واعتقد ان هذا القصر العبادى المستحدث هو نفس « دار الامارة » التى أشار اليها ابن عبد الواحد المراكشى فى معرض حديثه عن حيل المعتضد بالله فى التجسس على أعدائه (١) ، ولعله نفس القصر الذى سجن فيه ولده اسماعيل فى سنة ٤٤٩ هـ ثم قتله بيده (٢) ، وربما يكون هذا القصر العبادى هو نفس « القصر المكرم » الذى اجتمع ذو الوزارتين ابو بكر بن القصيرة فى احدى قاعاته مع المعتمد بن عباد فى اليوم الذى خرج فيه ابن عمار معه الى شلب لتفقد اعمالها (٣) وفى هذه الحالة تصبح لفظة « المكرم » صفة لقصر الامارة العبادى كالشأن فى تعظيمنا لجامع قرطبة اذ يطلق عليه الجامع المكرم أو الجامع الاعظم (٤) ، بدليل أن ابن صاحب الصلاة يصف قصور الموحدين بأنها القصور المكرمة (٥) • ولا نعتقد اطلاقا ان المكرم قصر

---

(١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٩٩ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٤٤ .
(٣) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، القاهرة ١٣٢٠ هـ ص ٥ .
(٤) يعتقد الاستاذ دون خوسى جيريرو لوبيو فى بحثه القيم عن القصر المبارك ان صفة المكرم وهى نفسه صفة جامع قرطبة الذى دسم بالمكرم اطلقت على قصر أخر غير قصر المبارك ولكنه احدث منه عهدا . كما يعتقد ان هذا القصر كان يشغل الموقع الذى تشغله اليوم شوارع امبارو ، وفيريا وابو سنتادرويس ، وريخينا ، وخيرونيمو ارناندث المسمى قديما بشارع العربى ، شارع سورا نخيلا دى لا كروثى المسمى قديما بشارع القصور وتتوسطها جميعا الكنيسة المعروفة اليوم بسان خوان دى لا بالما . ويستند الاستاذ لوبيد فى هذا الرأى على الاسماء القديمة لبعض هذه الشوارع ويشير بعضها الى وجود قصور ، كما يستند على أن هذا القصر من الابنية والشوارع كان يتلقى مياهه من الانبوب المكسور ، ومن البئر المتقدمة ، وهما نبعان يقعان فى هذه الجهة ظل حتى بداية العهد المسيحى يقومان بوظيفتهما . ومما يعزز رأية انه تم الكشف فى هذا القطاع نفسه عن عدد من الاثار او شارع ليستا رقم ٩ عثر فى نهاية القرن الماضى على حوض للمياة رائع كان ينتصب فى احدى مجالس الزاهرة ثم اعيد استخدامه فى احدى قاعات =

آخر غير قصر الامارة ، لانه لم يرد له ذكر فى جملة قصور بنى عباد الواردة فى شعر المعتمد نفسه وهو فى منفاة قد برح به الشرق وأمضه الالم :

= القصر العبادى الذى يفترض أن يكون موقعة فى ذلك الموضع كما عثر بعد ذلك فى النواحى القريبة على لوحة تذكارية مثبتة باحد الجدران الخارجية لكنيسة سان خوان دى لا بالما محفوظة اليوم بالمتحف الاهلى للاثار فى اشبيلية نقشت فيها بخط كوفى رائع كتابة تشير الى انشاء مسجد بامر السيدة زوج المعتمد بن عباد . وكان يقع بالقرب من هذه الكنيسة فى الشارع المعروف اليوم باسم ابو سنتا درويش ، حمام كبير مزود بعدة قاعات فسيحة كان ما يزال يقوم بوظيفته حتى القرن السادس عشر . ويرى الاستاذ لوبيو ان العثور على هذه الاثار فى منطقة محددة تحديدا دقيقا مع نقش يتضمن اسم احد افراد اسرة المعتمد ، يحملنا على الظن بان هذه الاثار الى علاقة وثيقة بقصر عبادى كبير (انظر :

Nerrero Lovillo, al - Qasr (al - Mubarak, p. 96

غير ان الادلة التى يستند عليها الصديق العالم الاثرى دون خوسى جيريرو لوبيو ليست من القوة بحيث يمكن الاعتماد عليها لتاكيد وقوع قصر عبادى بهذه المنطقة ، فالنقش الذى يشير الى بناء المسجد فى هذه المنطقة لايعنى باى حال ان بمسجد السيد كان قائما داخل اشبيلية زمن الموحدين (ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الانصارى كتاب الذيل والتكملة ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ،سفرا ، قسم ١ ، بيروت ص ٢٨) . وقد ثبت أن هذه السيدة هى ام المعتضد عباد (ابو عبد الله بن محمد بن عبد الملك الانصارى ، نفس المصدر السفرة قسم ٢ حقيق الدكتور احسان عباس ص ٥٣٩) وانها اكملت مسجدها المنتسب اليها فى امارة ابنها المعتضد ، وأن احد العلماء واسمه فرج بن حديدة البطليوسى تولى الاقراء فى هذا المسجد الى ان توفى فى ١٣ المحرم سنة ٤٨٠ . فانه لا يتعلق اذن بموقع قصر وانما بموقع مسجد ينتسب الى شخصية ما شأنه شأن مئات المساجد الى كانت تزخر بها اشبيلية فى عصر ولا يعرف ان مؤسس المعتمد قصرا فى هذه المنطقة المكتظة بالسكان ، وكل ما فى الامر ان عمل السيدة زوج المعتمد لايعدو عملا من اعمال البر فى منطقة شعبية من مناطق اشبيلية ، وكثيرا ما قامت ماقامت نساء امراء بنى امية وجارياتهم باعمال مماثلة فى قرطبة مثل مسجد شفاء ومسجد مدثر ومسجد طروب ومسجد ام سلمه ومسجد متعة ومسجد عجب ، دون ان يكون لمواقع هذه المساجد اى علاقة بقيام قصور او منشآت اميرية . اما اكتشاف خوض المياه من المدينة الزاهرة فلا يشكل شذوذ او يعبر عن غرابة ، فقد كان شائعا فى عصربنى=

بكى المبارك فى اثر ابن عباد ∴ بكى عـلى اثر غزلان وآسـاد

= عباد . بل وفى عهد الموحدين اعادة استخدام مواد بنائية وتماثيل من ابنية قديمة ، بدليل ان صومعة جامع اشبيلية تضم عددا كبيرا مـن تيجان اعمدة قرطبية ، وكذلك يضم بهو الجص بل قاعـة السفراء نفسها التى يرجع تاريخ بنائها الى عهد الملك القشتالـى دون بدرو الاول ، والقاعة التى تعلوها فى قصر اشبيلية عددا منها ، فالمعروف ان ابن باشه والوزير ابن السقاء استغلا اطلال الزهـراء استغلالا فاحشا ومنظما ، فاستأصلاها بالهدم والتخريب لبيع انقاضها مـن رخام وحجر وترابيد ومرمر وبلور وخشب ورصاص القنوات ونحاس الابواب (ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١ ، مجلد ٢ ص ٨٢ وبدأ الهدم الفعلى لقصور الزهراء والزاهرة فى ايام ابى الوليد محمد بن جهور ، « وكان رسل الاملاك (يقصد رسل ملوك الطوائف) تأتى لشراء تلك الالات باغلى الاثمان (ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ص ١١١ وقد زار ابو يوسف يعقوب المنصور اطلال الزهراء فى سنـة ٥٨٦ للتأمل فى اثار العهود الاموية البائدة ، وامر بنزع تمثال الزهراء فازيل واقتلع من اثارها ما بقى من اعمدة اعيد استخدامها فى مئذنة جامـع اشبيلية بل نقل بعضها الى غرناطة ومراكش .

وهكذا لا ينهض الحوض الاموى فى هذه المنطقة دليلا على وجود قصر عبادى كبير فيها ، كما ان وجود حمام كبير فى المنطقـة لا يعنى وجود قصر ، فما اكثر الحمامات التى اقيمت فى اشبيليـة فى العصر الاسلامى ، وقد اكتشفت حماما يرجع تاريخه الى عصر المرابطين داخل حانوت لشراب الفقاع والنبيذ يسمى « بار الخيرالدا » وسجلت عنـه دراسة علمية صدرت فى مجلة Archivo Hispalense بعنوان

Al Sayyid Salem, Restos de un bano musuluman en sevilla, en Archivo Hispalense, ano 1916, No 80, Sevilla, pp. 173 - 177.

كما اكتشفت اخيرا حماما اسلاميا داخل مطعم فى نفس الشارع المتعامد على صومعة جامـع اشبيلية يعـرف بالميسون El Meson بقيت منه بعض قبوات وعقود .

ومع ذلك فانيى مقتنع تماما بأن وجود هذه الاثار جميعا فى منطقة واحدة انما يشير الى اهمية المنطقة عمرانيا ، ولكن الاهمية العمرانية يمكن ان تقلل على اساس عمرانى بحت ، باعتبار انها تمثل القلب من اشبلية الاسلامية بعـد ان تناهت فى الاتساع زمـن المرابطـين والموحدين ، وليس ضروريا على الاطلاق ان يكون لهذه الاهمية ثمـة علاقة بوجود قصر للمعتمد ، فيكفى ان تشيد زوجـه مسجـدا حتى يجتذب هذا المجد افواجا من السكان ويكون هذا المسجد مقدمه لعديد من الابنية والدور .

(١) ابن صاحب الصلاة ، كتاب المن بالامامة ، ص ٣٥ ، ٤٦٤ .

بكت ثرياة لاغمت كواكبها ∴ بمثل نوء الثريا الرائح الغادى
بكى الوحيد ، بكى الزاهى بقبته ∴ والنهر والتاج كل ذله باد (١)

كذلك لانجد له ذكرا فى شعر ابن زيدون الذى ضمنه اسماء القصور العبادية ومنها قصر المبارك الذى عرف بالقصر ردده عدة مرات فى قوله :

وعدنا الى القصر الذى هو كعبة ∴ يغاديه منا ناظر أو مطرف (٢)

وفى قوله :

ورحت الى القصر الذى غض طرفه
بعيد التسامى أن غدا غيره القصر (٢)

وفى قوله يصف القصر المبارك الذى يتوسطه قصر الثريا ، فيشبهه بوجنة يتوسطها خال ، ويقول :

أما الثريا فالثريا نسبة ∴ وافادة وانافة وجمالا
قد شاقها الاغباب حتى انها ∴ لو تستطيع سرت اليك خيالا
رفة ورود كها لتغنم راحة ∴ واطل مزاركها لتنعم بالا
وتمثل القصر المبارك وجنة ∴ قد وسطت فيها الثريا جالا
وادر هناك من المدام أتمها ∴ أرجا ذكا وأشفها جريالا

---

(١) الفتح بن خفاقان ، قلائد العقيان ، طبعة مصر ١٣٢٠ هـ ص ٢٤ — المقرى ج ٦ ص ١٠ ومن المعروف ان المبارك والثريا والوحيد والزاهى اسماء قصورينى عباد ، اما النهر فالمقصود به نهر الوادى الكبير ذى تطل عليه هذه القصور واما التاج فيقصد به مرتفعات الشرف المطلة على النهر ، وقد جرت العادة فى العصر الاسلامى ان يطلق عليه اسم التاج ، فيقال تاج الشرف (ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٥٣) وقد يكون التاج اسما لقبة المعدس وهو الارجح ، فقد ورد ذكره فى شعر

(٢) ديوان ابن زيدون ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١١٥

قصر يقر العـين منـه مصنـع .·. بهج الجوانب لومشى لا ختالا
لازلت تفترش السرور حدائقا .·. فيه وتلتحف النعيم ظلالا (١)

كذلك لم يرد ذكر القصر المكرم فى أشعار المعتمد بن عبـاد التى نظمها فى منفاه وسجل فيها حنينه المتواصل الى قصره الزاهر بمنطقـة الشرف منبته الزيتون ، وقصوره الاخرى باشبيلية الاثيره لديه ، والتى يفصلها الوادى الكبير عن القصر الزاهر ، يبثها لوعته وأساه ، ويودعها أسمى عواطفه وأرق مشاعره من شوق وحنيين وألـم دفين ، يقـول المعتمد :

فياليت شعرى هل أبيتن ليلـة
أمامى وخلفى روضة وغديـر
بمنبتة الزيتون مورثـة العـلا
يغنى حمـام اوتدن طيـور
بزاهرها السامى الذرى جادة الحيا
تشـير الثريا نحونا ونشـير
ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده
غيورين والصب المحب غيور (٢)

وكانت تتقدم هذا القصر أو دار الامارة العبادية ساحة أو رحبة كانت تعرف فى عصر الموحدين لعلها تطل عـلى الوادى خـارج باب شريش أو بالقرب من باب الفرج وهو المنفذ الذى تسلل منه المرابطون عند هجومهم على اشبيلية من جهة الوادى ، ومن هناك انتشر المهاجمون داخل المدينة ودخلو رحبة القصر القريبة من النهر (٣) .

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٥٨
(٢) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٥ ، نفح الطيب ج ٦ ص ١١

ثانيا : قصور المعتمد بن عباد الملاصقة لقصر الامارة العبادى

وردت فى المصادر العربية اسماء قصور أنشأها المعتمد بن عباد وتغنى بها الشعراء اهمها مجموعة القصر el alcazar وتضم قصر المبارك وقصر الثريا والقصر الزاهى والقصر الوحيد ونضيف اليها قصر الزاهر وبعض قصور ريفية أخرى •

قصر المبارك : اما قصر المبارك الذى ذاعت شهرته بين قصور بنى عباد جميعا لعظمته وبهائه وجمال زخرفته فقد اقامه المعتمد لصق قصر الامارة العبادى ، والظاهر أنه أراد بهذا القصر محاكاة خلفاء بنى أمية العظام بقرطبة ، الذين أسسوا بقصر الخلافة القرطبى قصورا ومجالس، نذكر منها الكامل والزامل والمبارك فقد قلدا فى اشبيلية واما السور ففى سرقسطة واما البديع ففى بطليوس • ولعل المعتمد بن عباد أراد أن يتظاهر بما كان يتظاهر به خلفاء بنى أمية من سلطان وعظمه عن طريق البناء ، ولهذا قلد بنى أمية حتى فى أسماء قصورهم ، ونافسهم فى قدرته على البنيان • ويذكر الفتح بن خاقان ، « أن قرطبة كانت منتهى أمله وكان روم أمرها اشهى عمله ، ومازال يخطبها بمداخلة أهلها ومواصلة واليها اذ لم يكن فى منازله قائد ، ولم يكن لها الا حصل ومكائد لاستمساكهم بدعوة خلفائها ، وأنفتهم من طموس رسم الخلافة وعفائها » (١) • فلما استولى عليها قال :

من للملوك بشأن الاصيد البطل
هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت
من جاء يخطبها بالبيض والاسل

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٢ .

وكم غدت عاطلا حتى عرضت لهـا
فأصبحت فى سرى الحلـى والحلل
عرس الملوك لنا فى قصرها عرس
كل الملوك بـه فى مأتم الوجـل

ويكفى دليلا على منافسه اشبيلية لقرطبة قول الحصرى المكفوف أبى الحسن على بن عبد الغنى الشاعر يمتدح المعتمد :

أبنى عبـاد مـا حسـنت ∴ الابكـم الدنيـا فقـد
دانت بغـداد لقرطبـة ∴ وخلائفها للمعتمـد
سمعوا برشاد فتى لخـم ∴ فنفواها دون عن الرشد
يا فرع المنذر والنعمـا ∴ ن بلغت النجم فطل وزد
دلفئت انـوار أميـة فى ∴ قصر الخلفاء فقلت قـد
نافسـت بقصرهم أرمـا ∴ فكأن أميـة لم تشد (١)

وكان القصر المبارك من القصور التى ابتناها المعتمد للراحة واللهو وتبادل الانس مع أصحابة قد أمر بصناعة غز الين من ذهب، «فصنعا معا من سبعمائه مثقال خالصة ، فأهدى أحدهما الى الرشيد ابنـه ، والاخر الى السيد العروس بنت ابن مجاهد « ثم قال فى ذلك بيتا من الشعر هو :

بعثنا بالغزال الى الغزال ∴ وبالشمس المنيرة للهلاك

فلما أصبح المعتمد « على حال راحة فى القصر المبارك ، ودخل اليه

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة قسم ٤ مجلدا (تحقيـق د . احسان عباس)

الرشيد ابنه فتبادل الانس معه ، ثم أمر باحضار مـن جرت عادتـه بمشاهدة المجلس الكريم من الاصحاب فحضروا » فطلب منهـم أن يذيلوا على بيته (٢) •

وقدوصف الاديب ابو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسى القصر المبارك فقال :

فيا أيها القصر المبـارك لا تزل
وانت جـديد الحلتـين قشيب
ويا أيها الملك المؤيـد دم بهـه
ليترع كـوب أو يثار عكـوب
أسم فيه سرح اللحظ من طرف باسل
فراد الوغى فى نظاريـه غشيب
ستخلأره ام النجـوم تحلـه
لها كوكب لا حان منـه غروب
محيط بما أحببت من كل صورة
تروقـك حتى شكلهـن قريب
ومن حبك دون السموك كأنهـا
أفاريد روض الحزن وهو هضيب
الى طرر تحكى أصائل ملكـه
تكاد بأنداء النضـار تصـوب
ومن مرمر احذاه رونقة المهـا
فأخطأ فيه اللخط وهو مصيب
وبحر عليـه للرياحـين فيئـة
كيمناك مخضر البرود لحـوب
لئن كان مكظوما كغيظك أنـه
كعرضك مصقول الاديم خشيب

---

(١) نفس المصدر قسم ٢ مجلد ١ (تحقيق د . احسان عباس) ص، ٥٢١

أرى حو الاحداق أو رونق الطلى
طلاه ففيه للعقول خـلوب (١)

وواضح من هذا الوصف ان جدران القصر المبارك واسقفه كانت تزدان بزخارف رائعة تحير اللحظ ، وتروق العين بطررها ؛ وكانت لهذا القصر رحبة وبهو تتوسطه بحيرة تحف بها الرياحين ، تنعكس ظلالهـا على صفحة البحيرة .

ويصف ابن حمديس الصقلى هذا فقال :

ويا حبـذا دار يـد الله مسحـت
عليها بتجديـد البقاء فمـا تبـلى
مقـدسة لـو أن مـوسى كليمتـه
مشى قدما فى أرضهـا خلـع النعلا
اذا فتحـت أبوابها خـلت آنهـا
تقـول بترحيـب لداخلها أهـلا
وقد نقلت صناعهـا من صفاتـه
اليهـا فأفانينـا فأحسنت النقـلا
فمن صدره رحا ومن نوره سنـا
ومن صيته فرا ومن حلمـه أصلا
نسيت بـه ايوان كسـرى لانـه
اراني مثـلا ما رأيت لـه مثـلا
كـأن سليمان بـن داود لم تبـح
أوامـره للجـن فى شيده مهـلا

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ١ (تحقيق د . احسان عباس) ص ٥١٨ .

كـأن عيون السحـر نافـذة لـه
عليهـن فضلا من بذائعـه فصـلا
فكان مكـان القول يبعـث وصفـه
وقيقا وأذن الدهـر تسمعـه جذلى
ترى الشمس فيـه ليقة تستمدهـا
أكفء أقامت من تصاويرهـا شكـلا
تحوز له الامـواه بركة جـدول
تخال الصبـا منـه مشطبة نصـلا
اذا اتخذتها الشمس مرآة وجهها
اجالت عليها مـن مداوسها صقـلا
وقد تـوج البهو البهـى بقبـة
فقل فى عروس فى جلابيهـا تجلـى
تجمعت الاضـداد فيها مصانعـا
ولم أر خلقا قبلها جمـع الشمـلا
وأغرب مـا ابصرت بعـد مليكهـا
بها مترع يعدى الشجاعـة والبذلا
ولمـا تمشينا مـن توقـد نورهـا
تخذنا سناه فى نواظرنـا كحـلا (١)

ويصف الشاعر فى هـذه الابيات القاعـة الرئيسية للقصر المبارك وزخارفها المذهبة والجدول الذى يخترقها ليصب فى بركة صقلية الميـاه كالمرآة تتوسط البهو المستوف الذى تعلوه قبـة جمعت من الزخـارف البهية كل غريبة وتألقت بأضواء تتسلل من منافذ القبـة فتغمر البهـو

---

(١) نفس المصدر ، القسم الرابع ، المجلد الاول (تحقيق د احسان عباس) ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

بسنا نورها ، وكان باطن القبة مكسوا بزخارف نجمية تمثل نجوما وكواب (١) .

وقد أطنب الشعراء فى وصف مجالس القصر المبارك ، ففى شعرا ابن اللبانة الذى سبق أن أوردناه مايشير الى أن قصر الثريا كان يتوسط القصر المبارك توسط الخال فى الوجه واعتقد ان الثريا هى البهو والمقبب الذى تتوسطه البركه المشار اليها .

وكان من بين ملحقات القصر المبارك غرفة ذكر المراكشى ان المعتمد سجن فيها شاعره ابن عمار ثم قتله فيها فى سنة ٤٧٩هـ (٢) ، ويؤكد ابن الابار ذلك فيذكر ان المعتمد سجن ابن عمار فى بيت خامل من بيوت القصر (٣) اياما ثم قتله بيده ، واستدعى صاحب المدينة ذا الوزارتين أبا محمد عبد الله بن سلام من داره ، وكان ابن سلام هذا مشغولا باعداد مجلس من أفخم مجالس دوره لينزل فيه ابن عمار بعد ان اشيع ان المعتمد قد صفح عنه ، ووعد باطلاق سراحه . فمضى ابن سلام الى القصر وهو لا يشك فى أنه سيصحب معه ابن عمار ، فما كاد يصل الى فصيل حتى فوجىء برؤية ابن عمار وهو « متشحط فى دمائه ، ممرغ فى ثيابه » طريح فى قيده ، فسحبوه على وجهه الى أساس جدار قريب من سواقى قصر المبارك ، فطرح فى حوض كان قد حفر للجيار ثم ردموا عليه (٤) . وذكر ابن بسام أن جثته أخرجت من الموضع الذى قتل فيه ودرى فى قيوده خارج باب القصر المبارك ، وهو الباب المعروف

---

(١) يتمثل ذلك فى قول ابن اللبانة :

بكت ثرياه لاغمت كواكبها .. بمثل نوء الثريا الرائح الغادى

(٢) المراكشى ، المعجب ، ص ١٢٥ ، ١٢٧

(٣) يشير ابن بسام الى ان هذا الموضع الذى سجن فيه ابن عمار داخل القصر كان على مقربة منه (ابن بسام ، مجلد ١ قسم ٢ ص ٤٢٩) بحيث اتاه فى سجنه وقتله فيه ، ونستدل منه .

(٤) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ١٦٠

فى اشبيلية بباب النخيل (١) ، كما ذكر أن حفرا وقع بموضع رمسه من هذا المكان بعد أكثر من عشرين سنة (فى بداية عصر المرابضين) مضت من مقتله ، وذلك لبنيان عرض فيه ، فأخرجت جمجمته وغطا ساقيه مكبلة بالاغلال (٢) .

أما القصر الوحيد « الذى قرأناه فى شعر ابن اللبانه ، فلعه كان مجلسا من مجالس القصر المبارك ، أو أنه كان جناحا من أجنحة القصر منفردا فى جانب منه من جهة الوادى . أما الروضة فكانت تشغل ركنا من بساتين القصر المبارك أو قصر الامارة ، وفيها دفن المعتمد أباه المعتضد فى نفس التربة التى دفن فيها القاضى ابو القاسم محمد بن اسماعيل (٣) . وعلى نسق هذه الروضة اتخذ الموحدون لانفسهم روضة خارج باب جهور خصصت للسادة الأمراء عرفت بروضة الامراء (٤) أو مقابر السادة (٥) .

القصر الزاهى

ورد ذكر هذا القصر فى ابيات نظمها المعتمد بعد ان نفاه المرابطون فى العدوة حيث أقام بعض الوقت « تنبذه منابره وأعواده ، ولا يدنو منه زواره ولا عواده ، بقى آسفا تتصعد زفراته وتطرد اطراد المذانب عبراته ، تذكر منازله فشاقته ، وتصور بهجتها فراقته » فقال :

---

(١) ابن بسام ، المصدر السابق ، قسم ٢ ، مجلد ١ ، ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .
(٢) نفس المصدر ،ص ٤٣٠ . ونستدل من ذلك على ان ابنية جديدة استحدثت فى زمن المرابط قريبا من القصر المبارك .
(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٥٣
(٤) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٩٨
(٥) الذيل والتكملة ، السفر الاول قسم اول ، ص ٢٢٢

بكى المبارك فى اثر ابن عبـاد
بكى على أثر غزلان وآسـاد
بكت ثرياه لاعمت كواكبهـا
بمثل نوء الثريا الرائح الغادى
بكى الوحد بكى الزاهى بقبته
والنهر والتاج كل ذله بـاد (١)

كذلك ورد فى القصيدة التى يندب فيها المعتمد وهـو فى منفـاه اللحظات السعيدة التى كان يقضيها فى القصر الزاهر الذى كان قد شيده بتاج الشرف ،وكان من أجمل المواضع لديه وأبهاها واحبها اليه وأشهاها لاطلاله على النهر ، واشرافه على القصر ، وجها له فى العيون واشتماله بالزهر والزيتون ، وكان الزاهـر يعلو بين أشجـار الزيتون فى تـارج الشرف ، ويطل عليه من الجانب الاخر لاشبيلية القصر الزاهى وقبتـه المعروفة بسعد السعود ، فيقول المعتمد :

فياليت شعرى هل ابيتن ليلـة
امامى وخلفى روضة وغديـر
بمنبته الزيتون مورثـه العـلا
تغنى حمـام او تدن طيـور
بزاهرها السامى الذى جاده الحيا
تشـير الثريا نحونا وتشـير

---

(١) ابن خاقان قلائد العقبان ، مصر ١٣٢٠ هـ ، ص ٢٤

ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده

غيورين والضب المحب غيور (١)

وواضح من هذه الابيات ان القصر الزاهـــى كان يرتفـــع بقبته المسماه « سعد السعود» فوق سماء مجموعة قصور بنى عباد المطلة على الوادى الكبير ، وذكر المقرى نقلا عن الوزير ابى بكر بن اللبانة الدانى، فى كتابه « سقيط الدرر » ، ولقيط الزهر » ان المعتمد بن عباد صنـــع قسيم فى القبة المذكورة وهو :

« سعد السعود يتيه فوق الزاهى »

ثم استجاز الحاضرين ، فعجزوا ، فصنع ولده عبد الله الرشيد الشطر الثانى :

« وكلاهما فى حسنه متناهى »

ثم أكمل قائـــلا :

ومن اغتدى سكنا لمثـــل محمد

قد جل فى العليا عـــن الاشباه

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٥ ـ وقد اخطأ الاستاذ هنرى بيريس Henri Pérès, La Poesie and alouse en arabe classique au XI siede, Paris, 1937, p. 139.

كان مزود بابراج مرتفعة والحقيقة ان الشاعر لا يذكر ابراجا قط وانما يشير الى عظم ارتفاع القصر ويكتب عليه الامر فينسب نزهات للمتعة الى الزاهى بدلا من الزاهر مع ان : ابن خاقان يحدد الاسم بوضوح كما انه يشير الى موقعة على النهر بحيث يشرف على القصر ويكتنفه شجر الزيتون ويلتف به .

لازال يبلـغ فيهما ما شـاء،
ودهت عداه من الخطوب دواهى (١)

ويعتقد الاستاذ بيرجس ان المعتمد كان يسكن هو وحريمه وجميع جهازه الادارى فى القصر المبارك داخل نطاق السور وان الزاهى كـان يشغل احدى نقاط السور من الداخل (٢)، ولكن فى موضع آخر يفترض أنه ربما كان يقوم فى نفس الموضع الذى يشغله الان برج الذهب (٣). وقد أيده الاستاذ جيريرولوبيو فيما ذهب اليه (٤)، ولا أستبعد مـن جانبى هذا الافتراض سيما ونحن نعلم ان الزاهى كان يطل على الوادى الكبير، وانه لم يكن بعيدا من جهة أخرى عن القصر المبارك، وأنه كان يطل بقبته سعد السعود على القصر الزاهر الواقع تجاهه عـلى الضفة الاخرى من الوادى • وعلى هذا الاساس فان موقعة على النهر مباشرة يبعده الى حد ما عن سور المدينة ومن المعروف ان المعتمد يوم اقتحـم المرابطون باب الفرج، خرج لهم من القصر المبارك حاسرا منه فاضته فلحق أوائلهم عند الباب وقد انتشروا فى جنباته،وردهم عن الباب على أعقابهم، ثم رمم ما تثلم من الباب، ونستنتج من بروزة اليهم بهـذه السرعة وقد انتشروا فى رحبة القصر وليس عليه الا رقيقة ترف عـلى جسده، « وقد ضـاق بهـم فضاؤهـا، وتضعضعت من رحبتهـم أغضاؤها » (٥)، واندفاعه عليهم بهذا العنف الى حد أنه تمكن من ردهم الى الوادى، نستنتج من ذلك أن القصر الذى كـان يقيم فيـه المعتمد انذاك كان قريبا من الباب المذكور (باب الفرج)، وان الموضع الـذى

---

(١) ابن الابار، الحلة السيراء، ج ٢ ص ٦٩ — المقرى، ج ٥ ص١٤٦
Pérès, la Poesie and alouse, p. 137.

2) Ibid, p. 136, No 3.

3) Jose Gnerreés lovillo, op. cit, p. 91.

(٤) الفتح بن خاقان، المصدر السابق ص ٢٢ .

خرج منه المعتمد يقع بين باب الفرج الذى اقتحمه المرابطون وتسللوا منه الى رحبة القصر ، وبين باب الصباغين الذى وجدأبنه مالكا مقتولا بجواره (١) ، وهو نفس الموقع الذى سمى فيما بعد بباب الكحل ،وعلى هذا النحو يمكننا ان نقول بشيء من الاطمئنان ان المعتمد يوم اقتحام المرابطون كان فى قصره المبارك القريب من مسرح الاحداث ، وانه لـم يكن لا فى القصر الزاهى المطل على الوادى الكبـير ولا فى قصر الزاهر القائم بالشرف ، وكلاهما يبعد كثيرا عن بابى اشبيلية المذكورين آنفا .

ويصف عبد الجليل بن وهبون المرسى القصر الزاهى المطل عـلى الوادى الكبير كما يصف بهوه المقبب بقبوة خشبية مزينـة بالزخارف البديعة قوامها العناصر النباتية والتوريق فيقول :

ولزاهى الكمـال سنا وحسنـا ∴ كما وسع الجلالـة والكمـالا
يحاط بشـكله عرضـا وطـولا ∴ ولكن لا يحـاط بـه جمـالا
تواصلت المحـاسن فيـه شتى ∴ فوفد اللحـظ ينتقل انتقـالا
وقور مثـل ركن الطـود ثبـت ∴ ومختـال من الحسن اختيالا
تدافع مـن جوانبـه أئتلافـا ∴ فكـاد المستبين يقـول مـالا
فلو ادنو حـرام السحر منـه ∴ لاضحى بعبد السحر الحلالا
سماء ترتمـى بعبـاب بحـر ∴ كأن بهـا اكامـا أو تـلالا
فقـد كـاد البيـب يهاك منـه ∴ ويحسب أن تجر الجو سـالا
فمـا ابقى شهابا لـم يصـوب ∴ ولا شمسـا تنير ولاهـلالا
وللبهـو البهـى سمـاء نـور ∴ تمثل شكلهـا حلقـا دخـالا
مزخرفة كـأن الوشـى ألقـى ∴ عليها مـن طرائفـه خيـالا
وما خلت الهـواء يكون روضـا ∴ ولا سقفا يكـون كـذاك آلا
بلى حققـت أن النـار كانـت ∴ لـه ظئـرا وعنصـره زلالا

فلم اعـدل بجامـده مـذابـا ∴ ولم أنكـر لندوتـه اشتعالا
وكـن مصـدر حى جمـــاد ∴ تبـين فيـه زهـوا أو دلالا
نـه عمل وليس لــه حــراك ∴ وافهام دمـا ادى مقـالا (١)

ويصف ابن وهبون تمثال فيل من خالص اللجين كان ينتصـب فى جانب من البركة ، ويمج الماء من فمه ، فيقول :

وفرغ فيـه مثل النصل بـدع ∴ من الافيال لا يشكـو ملالا
رعـى رطب اللجين فجـاء صلدا ∴ وقاحا فلما يخشى هزالا (٢)

وكان المعتمد يعقد جلساته فى كثير من الاحيان على حافة البركـة فى الامسيات ، ويأمر بايقاد الشموع ، ويمتع ناظريه برؤية المياة تنساب من النيل الى البركة ، وضوء الشموع الباهت يمتد شاحبـا شحيحا ، وأنين سواقى القصر والدولاب تختلط بعزف الاوتار وألحان المطربين .

وقد جلس المعتمد يوما على البحيرة والماء يسيل من فم ذلك الفيل، وقد أوقدت شمعتان من جانبيه ، وكان معه الوزير الفقيه الشاعر أبـو بكر محمد بن اسحاق اللخمى المعروف بابن الملح ، فقـال فى ذلك عـدة مقطوعات منها :

ومشعلتين من الاضواء قد قرنـا ∴ بالماء والماء بالدولاب منزوف
لاحـا لعينى كالنجمـين بينهمـا ∴ خط المجرة ممدود ومعطوف



---

(١) ابن بسام ، المجلد الاول ، القسم الثانى (تحقيق د احسان عباس) ص ٥٠٨ ، ٥٠٩

(٢) ... ٥٠٩ ، ٥٢٢

وقال فيه ايضـــا :

كأن سراجى شربهم فى التظاعمـــا ∴ وأبنوب ماء الحوض فى سيلانه
كريـــم تولى كبرة مـــن كليهمـــا ∴ لئيمان فى انفاقه يعذلانـــه (١)

ثالثا : قصور بنى عبـــاد الاخرى

١ ــ القصر الزاهـــر :

نستدل من الابيات التى ذكرناها من قبل من نظم المعتمد على أن هذا القصر الزاهر كان يقوم فى موضع من تاج الشرف يقـــع قريبا مـــن الضفة اليمنى من الوادى الكبير ، وكان يعرف بحصن الزاهر أو الحصن الزاهر ، كما عرفت المنطقة التى يشرف عليها بمنبته الزيتون ، وكان هذا القصر أحب قصوره اليه وأثرها الى نفسه ، فكان يقصدها كلمـــا أراد لنفسه المرح واللهو والشراب بين اصحابه وندمائه ، وكان « له به مـــن الطرب والعيش المزرعى بحلاوة الضرب ، مالم يكن بحلب لبنى حمدان ، ولا لسيف بن ذى يزن فى رأس غمدان ، وكان كثيرا مايدير به راحه ، ويجعل فيه انشراحه » (٢) .

ويذكر المقرى نقلا عن الحجـــارى فى المسهب ، ان يوســـف بن تاشفين اهدى الى المعتمد جارية مغنية نشأت بالعدوة وأهـــل العدوى كانوا يكرهون أهل الاندلس ، وجاء بها الى اشبيلية وقد كثر الارجاف بنوايا يوسف بن تاشفين فى اسقاط عروشـــ الطوائف فاشتغـــل خاطر المعتمد بن عباد بالتفكير فى ذلك ، فخرج بها يوما الى قصر الزاهر وقعد على الراح ، فغنت الابيات الاتية بعد ان انتشى لتؤلمه وتستثيره :

---

(١) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ٢ ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ .
(٢) [illegible]

حملوا قلوب الاســد بين ضلوعهم ∴ ولؤوا عمائمهم على الاقمار
وتقلدوا يــوم الوغى هنديــــة ∴ أمضى اذا انتضيت من الاقدار
ان خوغــوك لقيت كــل كريهــة ∴ أو أمنــوك حللت دار قرار

فوقع فى قلبه انها عرفت بساداتها ، فلم يملك غضبة ورمى بها فى النهر فهلكت (١) •

ولا نعرف على وجه التحديد تاريخ شروع المعتمد بن عباد فى بناء قصر الزاهر فلم تزودنا المصادر العربية بنصوص تاريخية حول تاريخ الانشاء ، وكل ما وصل الينا لايعدو ابيات شعر قيلت فى هــذا القصر اشارات عابرة الى اسمه فى جملة ما ابتناه المعتمد من قصور • ولكننا نستنتج من دراساتنا عن طبوغرافية اشبيلية فى العصر الاسلامى بعض حقائق قد تسلط الضوء على كثير من مواطن الغموض فى مشكلة تاريخ هذا القصر ، وأود بهذه المناسبة ان أشير الى أن موقع هذا القصر يتفق الى حد كبير مع اثار حصن يرجع تاريخه الى عصر الموحدين ، تقــوم أطلاله حاليا فى قرية تعرف باســم سان خــوان دى « حصن الفرج » San Juan Azrifarche تقع فى شرف اشبيلية عــلى الضفة اليمنى من الوادى الكبير ، ومن الطبيعى أن أربط اسم هذه القرية وما تبقى فيها من آثار حصن الفرج وبين باب كان ينفتح فى ســور اشبيلية الجنوبى الشرقى فى اتجاه هذه القرية كان يطلق عليه اسم باب الفرج أشرت فيما سبق الى أن عساكر المرابطــين تسللت خلالــه الى القصر المبارك • وأعتقد ان موضع قصر الزاهر هو نفس الموقع الذى تبقت فيه آثار حصن الفرج المذكور ، واعتقد أيضا ان هذا الموضع نفســه كان يشغله حصن قديم من عصر الامارة الاموية كان يعرف بحصن الفرج شأنه شأن كثير من الحصون التى كانت تقام فى عديد من قرى اقليــم

---

(١) المق ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ١٢ .

الشرف (١) ولا تعدو ابراجا (٢) تحرس هذه القرى وتتولى الدفاع عنها فى أوقات الفتن ، وبنفس الاسم سمى أحد ابواب اشبيلية المطـل على الوادى الكبير تجاهه . فلما تولى المعتضد بالله امارة اشبيلية وراقه هذا الموضع ، لم يتردد فى قصده ، فجدد بنيانه واتخذ أحد صوره الريفية التى يقصدها للهو والنزهة والمتعة ، وسمـاه القصر الزاهـر لاشتماله بالزهر والشجر والزيتون . ثم جدد المعتمد على الله بنيانـه فى سنة ٤٧٢ هـ (٩ق١٠/١٠٨٠) (٣)ويعتقد الاستاذ جيريرو لوبيو أن تسمية هذا الحصن بالزاهر انما جاءت تقليدا واضحا لقصر الزهراء الذى ابتناه عبد الرحمن الناصر غربى قرطبة ، أو قصر الزاهرة الذى أقامة المنصور

---

(١) ذكر الادريسى ان الشرف يمتد « مسافة اربعين ميلا ، ولهذه الاربعون ميلا كلها تمشى فى ظل شجر الزيتون والتين ، ادلة بمدينـة اشبيلية واخره بمدينة اشبيلية واخره بمدينة لبلة ، وكله شجر الزيتون وسعته ان عشر ميلا ، واكثر ، وفيه فيما يذكر ثمانية الاف قرية عامرة أهلـة بالحمامات والدار الحسنة » (الادريسى ، المصدر السابق ص ١٧٨) وقد لخص الحميرى هـذا النص مـع ذكر بنفس الرقـم الذى اورده الادريسى عن عدد القرى باقليم الشرف (راجع : الحميرى ، ص ١٩) وذكر المقرى نقلا عن ابن مفلح ان الناس يتماطون السرح من جانبى نهر اشبيلية عشرة فراسخ فى عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وابراج مشيدة (المقرى ، ج ١ ص ١٩٣) .

(٢) يذكر العذرى اسماء بعض هـذه الابراج ومنهـا حصن شذفيلـة وحصن شيت طريس Siete Torres (الابراج السبعة) انظر العذرى ، المصدر السابق ص ١٠٣ ، ١٠٤ وحصن شذفيلة المذكور من بناء يحى عبد الله عبد الملك بن هاشم من البربر فى زمن الامير عبد الله الاموى (العذرى) .

(٣) ابن عذارى ، ج ٤ ، ص ١٨٩ . يؤكد ابن عذارى انه كان موضـع حصن الفرج من ثقبل حصن ينظر اشبيلية يسمى بهذا الاسم ، ويضيف نقلا عن صالح بن سيد : وفى سنة اثنين وسعبين واربعمائـة جدد المعتمد على الله حصن الفرج » .

محمد ابى ابى عامر شرقيها(١)•وعلى الرغم من ان هذا التفسير لايخلو من المنطق ، وانه يبد وأقرب ما يكون الى الحقيقة استنادا الى أن الزهراء وقرطبة كانتا دائما مصدر اللهم للمعتمد بن عباد ، كما سبق ان أوضحناه ، بالاضافة الى بيت من الشعر يسجل هذه الحقيقة كتبه المتمد لرفاقه نطالع فيه •

حسد القصر فيكم الزهراء •:• ولعمرى وعمركم ما أساء (٢)

فاننى أرجح ان تسمية حصن الفرج بالحصن الزاهر أو القصر الزاهر لم تكن تقليدا لاسم الزهراء أو الزاهرة ، لان هذين الاسمين يتعلقان بمدينتين متكاملتين فى حين ان قصر الزاهر كان قصر ريفى أقيم داخل حصن • واعتقد أنه غيير التسمية من الفرج الى الزاهر انما تم فى عهد المعتمد ، لان التسمية الجديدة شاعرية تتناسب مع رقة المعتمد الملك الشاعر وميوله وأهوائه وتتفق فى نفس الوقت مع حقيقة المجال الذى أقيم فيه القصر ، فقد كانت تلفه بساتين ورياض غرست فيها اشجار الزيتون وأنواع الورود والازهار ولعل هذه الطبيعة الساحرة هى التى الهمت المعتمد الاسم الجديد •

ويبدو ان هذا القصر تعرض للنهب والتدمير بعد سقوط دولة بنى عباد ، ولكن اطلاله ظلت قائمة حتى منتصف القرن السادس الهجرى ، وكان ما يزال يعرف بالحصن الزاهر بعد ان فقد كل خصائصه كقصر أميرى • ويذكر ابن الابار ان المريدين اتباع أبى القاسم بن قسى وصاحبه أبى الوليد محمد بن عمر بن المنذر تحركوا بقيادة محمد بن

---

2) J. guerrero Lovillo, op. cit., p. 94 Julis gonzalez, Repartimiento de sevilla, t.1, p. 495 : وراجع :

(٢) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١٠ .

المنذر من لبلة نحـو اشبيليـة ، فدخـل حصـن القصر (Aznalcazer) وطلياطة (Tejada) من اعمال شرفها — وقد كثف جمعه وكذ حشده — فانتهى الى الحصن الزاهر ودخله : وبظاهر اطريانـه (Triana) انكشف أصحابه أمام طائفة من جيش أبى زكريـاء يحيى بن على بـن غانية (١) ثم تعرض هذا الحصن من جديد للتدمير عندما اجتاحته قوات البرتغاليين فى سنـة ٥٧٨ هـ (١١٨٢) م (٢) • ويذكـر ابن عذارى ان يعقوب المنصور خليفة الموحدين أمر فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣م) باختطاط منزل بخارج اشبيلية يكون بتاج الشرف ، ليأخذ بمخنق بحرها ، ويكون كالطابع بين سحرها ونحرها ، فقامت فى أدنى مدة أشخاص الاسوار ، ومثلت مواضع الديار ، وكمل القصر الكبير بمجالسه المشرفة على اشبيلية وما والاها من البطاح والانظار الى منتهى نظر الابصار • وكان بناؤه ذلك كل من أضخم ما عمل وفوق ما أمل ، والمنصور بالحضرة (اشبيلية) يتشوف الى أبنائه ويوالى السؤال عما يتزيد من بنائه ، حتى برح بـه الشوق الى التشفى منصفاته ، والى معانية كيفية الوضع ببيانه ، فوجه عن الناظر فيه ، فوصل اليه وعرفه بكيفيته ، فزاد شؤون المنصور لـه وسماه بحصن الفرج ••• » (٣) وقبل أن يرحـل المنصور للجهـاد فى جمادى الاخرة سنة ٥٩١هـ حيث انتصر فى موقعة الارك المشهورة ، ركب

---

(١) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٢٠٣ .

2) Torres Balb as, Aznalfarache, al - Andalus, Vol, XGV, p. 223.

ولكن ابن عذارى يذكر ان البرتغاليين خرجـوا من جهـة شنترين والاشبونة ووصلوا فى غارتهم الى قرية شلوقة (Sanlucar) مـن الشرف ، واغاروا على حصن القصر وغيره ، دون ان يذكر اسـم حصن الزاهر (ص ١١٨) وفى نفس السنة يذكر ابن عذارى ان العدو تغلب على حصن شنتفيلة وهو نفـس حصن شذنبلة الذى سـبق الاشارة اليه (ص ١١٩)

الى حصن الفرج ، وعاين ما تم بناؤه من الحصن فأعجب به (١). فلما تم له الانتصار على قوى المسيحية فى اسبانيا فى تلك الوقعة ووصل الى اشبيلية مظفرا منصورا ، جلس للوفود فى قبة من تلك القباب مشرفة على النهر الاعظم ، واذن فأقبل عليه الشعراء ينشدونه قصائد مدح ، أشهرهم الشاعر على بن حزمون المرسى (٢) . وفى العام التالى (٥٩٢هـ/١١٩٥م) انتقل الى حصن الفرج بتاج الشرف وأكمل غرس البحيرة المحدثة أدنى الحصن ، وأمر بعمل نواعير على شاطىء النهر تحت الحصن ليستكمل بها جمال الموضع (٣) . ثم نزل بالحصن مرة أخرى فى سنة ٥٩٣ هـ أى فى أعقاب غزوته الثالثة ، حيث أقام بقية فصل الصيف وتمتع برقة هواء الحصن (٤) . وهكذا يتبين ان حصن الفرج الذى جدد المنصور الموحدى بناءه وأضاف اليه قاعات وقبات لم يكن سوى حصن الزاهر الذى كان جدد المعتمد بن عباد بنيانه وقد تبقت من الحصن اثار أسوار تكتنفها ابراج مربعة الشكل ضخمة سنتحدث عنها فى جملة الاثار الباقية من القصور .

٢ ــ المنيات والمجالس والمتنزهات :

يبقى بعد ذلك عدد من المنيات أو المجالس التى أقامها بنو عباد بين الربى والبطاح تحف بها الجداول وتشقها الوديان التى طرزت ضفافها بالاشجار والأدواح . وكان المعتمد بن عباد يقصد هذه المنيات بين الحين والحين ، ليقضى بين ندمائه وأصحابه ساعات ، يفترشون خضرة أرضها ، ويسرحون الابصار فى جمال مناظرها ، وينعمون بالسماع

---

(١) نفس المصدر ، قسم ٢ ص ١٩٢ ، ١٣٢
(٢) المراكشى ، المعجب ص ٢٩٢ .
(٣) ابن عذارى ، ص ١٩٨

والطرب فى اطار طبيعى خالص • وقد ورد أسماء هـذه المجـالس فى المصادر العربية ، ولكننا لم نتوصل بعد الى تحديد بعض مواقع هـذه المنيات من العمران الاشبيلى زمن بنى عباد ، وسنكتفى هنا بذكر دار المزينة ومجلس التاج فى منية المعرس ، ومتنزة وادى الطلح •

أ ــ دار المزينـة :

قد نقرأها دار المزينة تصغيرا لمزنة وهى السحابة البيضاء ، وقـد تكون دار المزينة ، أى الدار المنمقة لكثرة زخارفها وتنميقاتها ، وأيا ما كانت القراءة ، فقد كانت دارا ريفية تزدان قاعتها بالتوريق والتشجير الملون ، وكانت تلفها الاشجار وتكتنفها الازهار ، وتحيط بهـا الرياض النضرة التى تكسوها الورود وزهور الاسى والجلنار الزاهية ، والظاهر أن المعتمد أقامها بين بساتين قصره ليقضى فيها مجالس آنسه ومرحه • وقد وصف الفتح بن خاقان مجلس هذه الدار ، فذكر أن فخر الدولة بن المعتضد ، « دخل عليه فى دار المزينة والزهر يحسد اشراق مجلسه ، والمدد يحكى اتساق تأنسه ، وقد رددت الطير شدوها ، وجددت طربها وشجوها ،و الغصون قد التحفـت بسندسها ، والازهـار تحيى بطيب تنفسها » (١) ولا أستبعد أن يكون موقع تلك الدار فى الارض الفضاء المتدة خارج باب جهور من أبواب اشبيلية ، وهى نفس المنطقـة التى أختارها أبو يعقوب بن عبد المؤمن الموحـدى لبناء قصوره المعروفـة بالبحيرة (٢) • والظاهر أن بساتين هذه الدار كانت تتصل ببساتين القصر المبارك ، وقد أقيم فيها مجلس أنس كان يتردد عليه المعتمد فى الليالى القمرية حيث يلتحفقصر المبارك بضياء القمرويصف الفتح هذا المجلس،

---

(١) الفتح بن خاقان • قلائد العقيان ، ص ٩ المقرى ، نفـح الطيب ، ج ٦ ص ١٤ •

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٤٦٤ •

ويذكر دخول فخر الدولة على المعتمد فى مجلســه ، « فى ليلة قد ثنى السرور منامها ، وامتطى الحبور غاربها وسنامها ، وراع الانس فؤادها ، وستر بياض الامانى فى سوادهـا ، وعازل نسيـم الروض زوارها وعوادها ، ونور السرج قد تلقى اذيالها ، ومحاسن لجبن الارض نبالها ، والمجلس مكتسى بالمعالى ، وصوت المثانى والمثالث عالى ، والبدر قـد كمل ، والتحف بضوئه القصر واشتمل ، وتزين بسناه وتجمل » [1] .

ب ــ مجلس المعـرس :

وكان محلا بقاعته المعروفة بالتاج على الوادى الكبير خارج باب جهور بين الرياض والبساتين وكان التاج قاعة تسمو بقبتهـا ، وتعلو بهامتها على مجموعة قصور بنى عباد ويذكر ابن خاقان أن المعتمد قصد هذا المجلس فى يوم « قد نشر من غيمه رداء ند ، وأسكب من قطره ماء ورد ، وأبدى من برقة لسان نار ، وأظهر من قوس مـن قوس قزحه حنايا آس جفت بنرجس وجلنار ، والروض قد نفث رياه ، وبث الشكر لسقياه ، فكتب الى الطبيب أبى محمد المصرى (خفيف) .

أيها الصاحب الذى فارقت عينى
ونفسى منـــه الســنا والنســـاء
نحن فى المجلس الذى يهـب الرا
حـة والسمـع والغنى والغنـاء
نتعاطى التى تسـمى من اللـذ
ة والرقـة والهـوى والهـــواء
فأتـه تلـف راحـة ومحيـــا
قد اعـدا لك الحيـــا والحيـاء

---

(1) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٦ ــ المقرى ، المصدر السـابق ، السابق ، ج ٦ ص ١٧ .

فواقاة ، وألفى مجلسه وقد أتلعت فيه الاباريق أجيادها ، وأقامت فيه خيل السرور طرادها ، واعطته الامانى انطباعها وانقيادها ، وأهدت الدنيا ليومه مواسها وأعيادها ، وخلعت عليه الشمس شعاعها ، ونشرت فيه الحدائق ايناعها ، فأدبرت وتعوطيت الاقداح ، وخامر النفوس الابتهاج والارتياح ، وأظهر المعتمد من ايناسه ما به نفوس جلاسه ، ثم دعا بكبير ، فشربه كما غربت الشمس فى ثبير ، وعندما تناولها قام المصرى ينشد ابياتا تمثلها :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا
بشاد مهر ودع غمدان لليمن
فأنت أولى بتاج الملك تلبسه
من هوذة بن على وابن ذى يزن (١)

وواضح من البيتين الاخيرين ان التاج هو اسم القبة التى تعلو مجلس المعرس ، والشاد مهر هو البستان . ونستدل على اسم المعرس من الابيات الاتية التى كتبها ذو الوزارتين ابو الوليد بن زيدون ، وكان حاضرا المجلس المذكور :

يا جمال الموكب الغادى اذا
سار فيه يا بهاء المجلس
شرفت بكر المعالى خطبة
بك فانعم بسرور المعرس
وارتشف معسول ثغر اشنب
تجتنبه من حجاج العس

---

(١) الفتح بن خاقان ، ص ٧ — المقرى ، ج ٦ ص ١٨ .

واغتبق بالسعد دى دست المنى
يصبح الصنع دهان الاكؤس (١)

وكان أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين يؤثر النزول فى هذا المجلس كلما حل باشبيلية ، ويصفه الفتح بقوله : « وهو موضع مستبدع كأن الحسن فيه مودع ، ما شئت من نهر ينساب انسياب الاراقم ، وروض كما وشت البرد يد راقم ، وزهر يحسد رياه ، ويتمنى الصبح أن تسم به محياة » (٢) .

ولعله هو نفس الموضع الذى أقام ابو يعقوب يوسف الموحدى بالقرب منه قصور البحيرة خارج باب جهور (٣) .

وكان يشق تلك الرياض الممتدة خارج باب جهور واد متفرع من الوادى الكبير كان يعرف حتى عهد قريب قبل ان يردم باسم تاجاريتى Tagarete وكانت تتخلله خارج باب جهور بحيرة ذكر ابن عذارى انها كانت تقع خارج هذا الباب (٤) استغلها ابو يعقوب يوسف فى انشاء بحيرة صناعية اختطها داخل سوره التى ابتناها فيما وراء باب جهور وعرفت بقصور البحيرة (٥) ، ولعلها نفس البحيرة التى يسيمها الفتح

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧
(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٨ ، المقرى ، ج ٢ ص ١٩٣ .
(٣) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ص ٤٦٤ .
(٤) ابن عذارى ، قسم ٣ ص ١٩٢ . وفى ذلك يقوم بمناسبة وصول المنصور الموحدى الى اشبيلية فى سنة ٥٩١ هـ قبل توجهه لمحاربة القشتاليين وحلفائهم من دول اسبانيا المسيحية فى موقعة الارك « ولما وصل المنصور الى اشبيلية نزل بظاهر بحيرة باب جهور ، فخرج الملأ من اهل البلد اليه برسم السلام عليه » .
(٥) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٤٦٤ حيث يقول فى معرض حديثة عن موضع قصور البحيرة المعروف عند الناس قديما بلقم فرعون « واختط بحيرته منه فى الجنان المنسوب لابن مسلمة » . راجع ايضا ابن عذارى ، قسم ٣ ص ٩٥ .

بن خاقان باسم البحيرة العظمى تمييزا لها عن بحيرتين صغيرتين أو بركتين صناعيتين كانتا تتورطان بهوى الثريا والزاهى ، وكانت تحف بالبحيرة الكبرى زمن المعتمد بن عباد الاشجار ، وتنعكس عليها النجوم فتبدو على صفحة مياهها كالازهار (١) .

ج — منتزة وادى مطلح :

كان المعتمد كثيرا ما ينتاب هذا الوادى مع رميكيته ، وهى اعتماد جاريته وأم أولاده ، وكانت لها معرفة بالغناء ، حسنة الحديث ، حلوة النادر كثيرة الفكاهه (٢) . ويذكر المقرى ان وادى الطلح واد بشرف اشبيلية ملتف بالاشجار كثير ترنمم الاطيار وأرضة تحف بها الازهار(٣) ويذكر ابن سعيد اسم هذا الوادى بجهة حصن القصر (٤) .

ثالثا : قصور الموحدين المجاورة لقصور بنى عباد

اهتم خلفاء الموحدين فى الاندلس ببناء القصور ، وحظيت اشبيلية، حاضرتهم فى الاندلس ، بعنايتهم ، فأسسوا بالاضافة الى قصور بنى عباد قصر للامارة ملاصقا لبعض قاعات القصر المبارك والثريا ، كما اقاموا قصور البحيرة خارج باب جهور ، وقصور أخرى للسادة الامراء خارج باب الكحل ، هذا الى اعادة بنيان حصن الفرج فى الموضع الذى كان يقوم فيه الحصن الزاهر .

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٤

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٨ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٤) ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د . شوقى ضيف ج ١ ص ٢٩٦ .

١ ـ قصور البحيـرة :

فى شهر صفر سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) أمر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أثناء مقامه فى اشبيلية ببناء « قصـوره المكرمة السعيـدة المعروفة بالبحيرة خارج باب جهور من اشبيلية » ، كما أمر بـأن تختط بحيرة هذه القصور فى الجنة المنسوبة لابن مسلمة القرطبى ، بعـد أن انتزع منه ملكيتها مقابل عوض صحيح من الجنات مثلها • وفى هـذا الموضع ابتنى العرفاء القصور المذكورة ودورا للامـراء فاقت القصور التى ابتناها العريف محمد بن المعلم لاخيه السيد أبى حفص على وادى اشبيلية خارج باب الكحل • وقد تولى بناء قصور البحيرة ودور الامراء العريف أحمد بن باسه عريف (١) البنائين فى الاندلس ، فاستكمل بناءها، وجاءت من الحسن يحار فيها الوصف » أربت عـلى مبانى الخورنق والسدير ، وطلعت بباب جهور كالبدر المنير » (٢) • ضم سورها بأسوار مبنية من الجيار والرمل والحصى • وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف قد عهد الى كل من القاضى أبى القاسم احمد بن محمد الحوفى الاشبيلى (ت ٥٨٨هـ) ابى بكر محمد بن يحيـى الحذاء امـام جامعة اشبيليـة (ت ٦٠٠ هـ) والموثق باختطاط ما يلزم لاقامة بساتين ملحقة بالقصور تغرس بأشجار الزيتون والاعناب والكمثرى والاجاص المسمى بالعبقر والارزة والتفاح ، فاختصا ما أمرهما به ، وكان الملتزم للحفر فى غرس البحيرة المذكورة الشيخ أبو داود بلول بن جلدا سن مشرف اشبيليـة وأعمالها تحت اشراف السيدين أبى العلاء ادريس الوزير وابنه يحيى(٣).

ثم نظر الخليفة أبو يعقوب يوسف فى مشكلة توصيل الميـاة الى قصوره باشبيلة والبحيرة ، وعهد بذلك الى المهندس الحاج يعيش،وكان

---

(١) ينتمى احمد بن باسه الى اسرة اندلسية متخصصة فى فن البناء .
(٢) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٦٧ .
(٣) ابن صاب الصلاة ص ٤٧٦ .

خارج باب قرمونة أثر قديم بعد به العهد من بنيان جسر رومانى قديم علت عليه الارض ، وأصبح مجرد خيط رفيع من حجارة لم يكن معروفا الهدف منه . فأخذ الحاج يعيش المهندس يتتبعه ، وحفر حوله ، فاذا به جسر قديم للمياة يرجع تاريخه الى العصر الرومانى « سرب قد جلب فيه الماء قديما الى اشبيلية من عمل الاوائل الملوك من الروم الماضيــة والقرون الخالية » (١) فما زال الحاج يعيش يتتبعه بالحفر حتى أوقعه الحفر فى العين القديمة المسماة عند اهل اشبيلية بعين الغبار ، فتبين بعد فحصها انها ليست عينا كما كان الظــن ، وانما كانت فتقــا فى الجسر الرومانى ، فاستمر يعيش يواصل الحفر حتى اهتدى الى أصل الجسر قرب قلعة جابر (٢) Alcala de Guadaria فأصلحه المهندس الحاج يعيش واجراه الى داخل اشبيلية حتى البحيرة ثم أمر الخليفة الموحدى باجرائه الى داخل اشبيلية والى قصور بنى عباد لتعم الفائدة وينتفع الناس من مياهه فى شربهم ومرافقهم ، كما أمر ببناء محبــس للماء فى حارة ميور (٣) El callejon dei agna وتقابلها اليوم حارة الماء

وما زالت بقية من هذا الجسر قائمــة خارج باب قرمونــة مــن اشبيلية ، وبعض عقوده فى هذا القطاع من الاجر ، وبعضها الاخر من الحجر .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٦٨ .

(٢) تقع قلعة جابر شرقى اشبيلية على مقربة من قرمونة واليهــا ينسب عامر بن خدوش القلعى الذى يقول :

الا يا سقى الرحمن قلعة جابر .. فكم لى فيها من ليال زواهر (راجع ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ تحقيق د . شوقــى ضيف ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٢٩١) .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٦٩ .

٢ ـ اعمال الموحدين داخل قصور بنى عباد باشبيلية :

من العسير استخلاص ما أقامه الموحدون فى مجموعة الابنية التى تؤلف اليوم قصر اشبيلية فقد كان يتألف من قصور مختلفة فى مركزين رئيسين : قصر الملك بدور الذى أقامه فى سنة ١٣٦٤م على أبنية اسلامية، والقصر المسمى بالقصر القديم .

ولا نشك فى أن الموحدين هدموا جانبا من قصور ابن عباد وأقاموا مكانها قاعات جديدة تتفق زخارفها ويتناسب تخطيطها مع الاسلوب الشائع فى فنون الموحدين ، ويتميز بالجمع بين البساطة التى اتسمت بها عمائرهم فى المغرب والغلو فى الحشد الزخرفي والميل الى التعقيد وهما خاصتان بارزتان فى فنون الاندلس فى عصرى الخلافة والطوائف وقد شاع فى فن الموحدين استخدام شبكات المعينات فى المسطحات المراد زخرفتها كما هو الحال فى صومعة جامع اشبيلية وفى بائكه بهو الجص بقصر اشبيلية . ولم يتبق من اضافات الموحدين فى قصور بنى عباد سوى البائكة المذكورة ، والبهو المصلب المجاور ، هذا الى جانب بهو العدل . وسنعود الى الحديث عنها عندما نتعرض لدراسة آثار هذه القصور وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف قد أقام القصبة الداخلية والخارجية فى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) : أما الداخلية فتضم قصور بنى عباد وما أضيف اليها من قصور الموحدين داخل نطاق المدينة (١) ، وكان المشروع يستهدف كذلك ضم بنيان المسجد الجامع بالقصبة ، واما القصبة الخارجية فقد أقيمت خارج باب الكحل (٢) ، وكانت تحيط بقصور السادة الامراء اخوة الخليفة وأبنائه . ويحدد

---

(١) ابن ابى زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص ١٣٨

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٣٥ .

ومن المعتقد انها كانت تقوم فى نفس موضع قصر سان تيلمو «San Telmo» وحدائق مار لويسا المطلة على الوادى الكبير .

ابن صاحب الصلاة امتداد اسوار القصبة الداخلية فيذكر انهـا كانت تبدأ من رحبة ابن خلدون داخل اشبيلية ، وتضم جامـع القصبة ودار الصناعة حتى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل (١) • ولكن اعمـال البناء فى أسوار القصبة الداخلية لم تلبث أن توقفت بعد وفاة الخليفة(٢) لان ابا يوسف يعقوب المنصور الخليفة الموحدى الجديد أعرض عن بنيان هذا السور (٣) • وكان الموحدون قد هدموا اسوار قصور بنى عبـاد واستخدموا احجارها فى بنيان أسس صومعة جامع اشبيلية وكانت من النوع العادى أو القديم المسمى بالطحون (٤) ، وهى أحجار من نفس نوعية احجار الركائز الباقية بجامع ابن عدبس • ومن المعروف ان هذا المسجد أقيم بناؤه من أحجار السور الرومانى كالشأن فى صـور قصر الامارة العبادى • ولهذا فقد اعاد ابن باسه استخدام احجـار سور القصر العبادى فى بناء القسم الادنى من الصومعة بما فيـه الاسس ، وما زالت كتلتان تحملان بعد نقشا لاتينيا • والظاهر ان ابن باسه توفى قبل شروعه فى بنيان القسم الادنى من الصومعة بالحجر ، فتوقف على أثر ذلك البنيان بالاحجار واستبدل بها البنيان بالاجر وتم ذلك على يد على الغمارى •

٣ — قصور السادة الموحدين :

يؤكد ابن صاحب الصلاة ان محمد بن المعلم العريف تولى الاشراف

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٨٠ .

(٢) ذكر ابن صاحب الصلاة انها بنيت حتى نصفها (المن بالامامة ، ص ٢٣٥) .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ٤٨٢ .

(٤) نفسه . ولعل الطحون تعريف من كلمة «Tajon» الاسبانية ومعناها كتلة من الحجر الجيرى .

Diccionario ae la lengua espanola, Publicado por la Real Academia Espanola, Madrid 1947

على مبانى السيد ابى حفصه اخى الخليفة ابى يعقوب يوسـف ، التى ابتناها له على وادى اشبيلية خارج باب الكحل ، فى موقع يمكن تحديده من سور القصبة البرانيـة ودار الصناعـة . ويعتقد الاستاذ خوليـو جنثالث أن هذا الموضع نفس موضع القصر المسمى بسان تيلمو (١٦٨٢ ــ ١٧٣٣) استنادا الى أنه كانت تقوم فيه منية فى عصر الاسترداد (١)

وهناك قصور أخرى كانت تقـوم عند سقوط المدينـة فى أيدى القشتاليين بالقرب من الباب المسمى فيما بعد بباب الباركيتا La Barqueta فقد منح الملك الفونسو العاشر اخاه الامير دون فادريكى Fa drique اقطاعا ضخما يقع بين دير سانتا كلارا والباب المذكور ، ويضم من بين محتوياته قصرا وبساتين ممتدة . وفى هذا الاقطاع شيد برجا اتبع فى بنائه الاسلوب القوطى ، ما يزال قائما حتى اليوم ويحمل اسمه (٢) . ولكن لم يكد يمضى سنوات على ذلك حتى صادر الفونسو العاشر ممتلكات دون فادريكى بسبب خلاف وقع بينهما ، وقدم الملك قسما من هـذه الممتلكات الى منظمة قلعة رباح الدينية فى ١٨ مارس ١٢٧٣ فى حين قدم سانشو الجسو قسما أخر منها هبـة الى طائفة الراهبـان الكلاريـات الفرنتشكانيات فى سنة ١٢٨٩ ، وفى هذا القسم اقيم الدير القائـم فى الوقت الحاضر . وقد أقامت منظمة قلعة ربـاح فى البساتين المجاورة لباب الرجل كنيسة سان بيتو San Benito ودورا لرئيس القساوسة وكان سانتا لوثيا يتميز بشوارعه الضيقـة ومن بينها شـارع الشمس وشارع الافران ومبانيه التى كان يسكنها المدجنون فى القرون الثلاثـة التى أعقبت وفاة فرناندو الثانى وفى وسط شارع الشمس كان يقـوم البيت المسمى ببيت الملك المسلم Casa delrey inoro ويعتقـد

1) Julis Gonzalez, Repartimiento de seirlla, t.I, p. 493.

2) Elie Lambert. L'art gothique a Seville p. 160 - Santiago Moutoto, Nuevo Guia de Sevilla, Madrid, 1951, p. 126.

ثليستينو لوبث مرتينث بعد دراسة حول التفسيرات المختلفة لاسم هذا الملك ان المقصود بالملك المسلم هو ابن محفوظ صاحب لبلة والغرب (١) الذى نزل فى هذا البيت أو القصر فى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٢م) (٢)•وقد يكون المقصود بالملك المسلم ملك يباشر بالفعل الحكم فى اسبانيا الاسلامية ، ولعله السلطان الغالب بالله محمد بن الاحمر الذى قدم الى اشبيلية فى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م) ليجدد معاهدة الصلح المعقودة بينه وبين الملك الفونسو العاشر ملك قشتالة ، وكان بصحبه صهراه الزعيمان ابو محمد وابو اسحق ابنا اشقيلولة مع قوة غرناطية من خمسمائة فارس ، فخرج اليهم الملك الفونسو العاشر لتلقيهم ، ودعاهم لزيارته داخل المدينة ، فاستجاب ابن الاحمر ، ودخل اشبيلية مع صهريه وجماعة من فرسانه ، فنزلوا بالعبادية منها وهو زقاق ضيق من اشبيلية ، وفى الصباح الباكر ابلغ بأن القشتالين سدوا الدروب الموصلة الى مكانة اثناء الليل بالخشب المسمرة تعويقا لسير الخيل ، فخشى على نفسه ، وشم رائحة الغدربه ، وبالزعيمان ابنى اشقيلولة فأمر رجاله بكسر هذا الخشب وارتحل مع أصحابه فغادرا اشبيلية ، مغاضب لالفونسو • ولم يقتنع باعذار الفونسو الذى أقسم انه لم يأمر بسد الدروب الا بقصد حمايته من اللصوص (٣) •

وواضح من هذه الرواية أن البيت المسمى ببيت الملك المسلم يمكن ان يقصد به القصر الذى نزله السلطان الغرناطى ، اذ ان ابن محفوظ

---

(١) ابن عذارى القسم الثالث ، ص ٤٣٦ •

2) Celes tino Lopez Martinez, Mudejares y morisos, p. 19

وقد ايد سانتياجو مونتوتو Santiago Montot هذا الراى فى كتابه عن شوارع اشبيلية

(Santiago Montoto, Las Calles de Seirlla, Seirlla,

حيث يسمى هذا الملك باسم Abemafor (1950 p. 426) اى ابن محفوظ

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٤٣٠ •

صاحب لبلة كان قد أخرج أهل لبلة منها قبل ان يدخلهـا القشتاليون ، ووصل مع قومه الى مراكش فى خلافة المرتضى الموحدى .

واذا كان الاستاذ جيريرولوبيو يعتقد ان زقاق العبادية هو القصر فهذا الاعتقاد فيما يبدو خاطىء لأن شارع الشمس كان يقع فى أقصى الشمال الشرقى من اشبيلية قريبا من باب قرطبة ، أو بين هذا البـاب وباب الفتح المجاور لباب قرمونة واذا كان قد سمى بالعبادية ، فلعل هذه التسمية ترجع الى الدار القديمة التى كـان يسكنهـا فى اشبيلية القاضى اسماعيل بن عباد .

رابعا : الاثار الباقية من قصور بنى عاد والموحدين

١ ـ اثار القصر المبارك وقصر الامارة العبادى والقصر الزاهى :

بعد ان نكب المرابطون آل عباد ، وأسروا عميدهم المعتمـد ونفوه الى العدوة ومنها الى اغمات ، ووقع النهـب فى قصره (١) ، هبت على اشبيلية ريح عاتية من التدمير شملت قصوره التى كان قد ابتناها للهوه ومراحه . أما القصر فقد رجحنا أنه كان مقاما فى نفس الموضع الذى يقوم عليه اليوم برج الذهب ، والمنطقة المجاورة له من جهة القصر حتى برج الفضة ، واما القصر الزاهر فلم يتبق منه فى عصر الموحدين الا آثار دراسه وجدران واهية فبناه المنصور حصنا اسماه حصن الفرج ، كان يشتمل على قباب وقصور ، واما القصر المعرس ومجلس التـاج ، فقد ظل يحتفظ بعناصره فى عصر المرابطين وكان يتردد عليه الامير على

---

(١) المقرى ، ج ٦ ص ٢٠ ويذكر عبد الواحد المراكشـى ان البربر بعـد دخولهم اشبلية لم يتركوا لاحد بين اهلها سبدا ولا لبدا ، » وانتبهت قصر المعتمد بها قبحا » (المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٢) .

بن يوسف ، ولكنه تعرض بدوره للتدمير فى موجة الاضطرابات التى واكبت نهاية العهد المرابطى فى الاندلس ، ولم يبق من اشارة سوى البحيرة الكبرى الواقعة خارج باب جهور . واما القصر المبارك وما كان يضمه من مجالس فخمة كالثريا والوحيد وقصر الامارة ، فقد أبقى عليها المرابطون ، وظلت تحتفظ الى حد كبير بعناصره الاولى طوال عهدهم وبداية عهد الموحدين .

وقد ظل القصر المبارك مقرا لضيوف دولتى المرابطين والموحدين، ونستدل فى ذلك على النصوص التاريخية التى زودنا بها كل من ابن صاحب الصلاة وابن عذارى ، وتشير هذه النصوص الى أنه بعد وفاة ابن مردنيش وغلبة الموحدين على مرسية بادر هلال بن مردنيش باظهار طاعته الخليفة الموحدى ابى يعقوب يوسف فى اشبيلية ، فقدم مع آله وأصحابه ليعلن طاعته للخليفة ، فأرسل الخليفة الى لقائه اخواه السيد أبا زكريا يحيى وأبا ابراهيم مع علية ابناء اشياخ الجماعة من الموحدين، فتلقوه بالتكريم على أميال من اشبيلية ، وصحبوه اليها ، فدخل « فى صحبتهم الى القصبة العتيقة الى مجلس الخليفة رضى الله عنه »(١) وذلك فى أول رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، ولما تمت مبايعته للخليفة ، أنزله «فى قصر (٢) محمد بن عباد أمير اشبيلية الرفيع الشأن ، العظيم البنيان ، وأنزل أصحابه فى الدور المتصلة به (٣) ، وقد أعدت لهم الفرش والبسط والمطاعم والمكارم والمشارب والمآرب ، وأفهموا أنهم الاقارب والاصاحب » (٤) .

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٧٢ . ويستدل من النص المذكور ان الخليفة الموحدى اتخذ من قصر الامارة العبادى مقرا للحكم .

(٢) المقصود به القصر المبارك بثرياه .

(٣) والمقصود بهذه الدور بعض الملحقات الخاصة بهذا القصر .

(٤) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٧٢ ، ٤٧١ ، ابن عذارى ، ص ٩٦ .

وفى العام التالى (فى الثامن من ربيع الاول سنة ٥٦٨ هـ) عـاد الخليفة الموحدى من زيارته لمرسية وبصحبته جميـع أولاد محمد بـن مردنيش وعيالاتهم وعيال ابيهم وأخواتهم ، فأنزلهم الخليفة أضيافا فى قصر ابن عباد وفى الدور المتصلة به ، واشترى لهم دورا باشبيلية من أربابها لسكناهم غير أن القصر المبارك لم يلبث أن هجر بعـد ان ابتنى ابو يعقوب يوسف قصور البحيرة ، والظاهر أن بعض جدران القصر تصدعت وسقطت ، واتفق ذلك مع شروع العريف احمد بن باسه فى بناء صومعة جامع القصبة باشبيلية وحاجته الى كمية من الاحجار الضخمة ، فاستخدم فى ذلك الاحجار المقتلعة من سور قصر ابن عباد ، وهكـذا أخذ السور الخارجى للقصر المبارك وقصر الامارة العبادى يتهدم ويعاد استخدام احجاره فى أبنية الموحدين الاخرى ، اما القصر نفسه بمجالسه وقاعاته فقد ظل يحتفظ بكيانه ، ويذكر المراكشى أن القصر المبارك كان مايزال قائما فى عهده (١) ويؤدى وظيفته كمقر ضيافة للوافدين عـلى اشبيلية من ضيوف الدولة الموحدية ففى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) دخل الامير ابو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر مدينة اشبيلية بحيلة دبرها وقتل شيخها ابا مروان الباجى غدرا ، وأقام فى القصبـة شهرا (أى قصر الامارة) ولكن أهل اشبيلية أخرجوه منها وجددوا بيعتهم لابـى عبد الله محمد بن هود (٢) .

فلما سقطت اشبيلية فى أيدى القشتالين فى (٢٧ رمضان ٦٣٦ هـ) ٢٣ من ديسمبر سنة ١٢٤٨ م ، وأصبحت قاعدة لملوك قشتالة اتخـذ

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥١٦

(٢) ابن عبد الواحد المراكشى ، المعجـب ، ص ١٢٥ (يقـول فى معرض حديثه عن قيام المعتمد بحبس ابن عمار : وجعل فى غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك . وهو باق الى قوتنا هذا) .

(٣) ابن عذارى ، قسم ٣ ، ص ٣٢٢ .

هؤلاء قصر اشبيلية مقرا لهم ، وأصبح هذا القصر والمجموعة العبادية والموحدية مقر فرناندو الثالث الفونسو العاشر العالـم وبدروا الاول القاسى ملوك قشتالة ، وشاركت اشبيلية شقيقة طليطلة فى شغل مكـان الحاضرة الرئيسية لملوك قشتالة القدامى (١) . ثم أقـدم الفونسو العاشر العالم على احداث بعض التغييرات فى قصور المسلمين ، فأسس قصرا على الطراز القوطى بقيت منه قاعدة طويلة منخفضة تعلوها قنوات قوطية تعرف اليوم باسم حمامات ماريا دى بادي Banos de Maria de Padilla كما تبقت ثلاث قاعات كبيرة تغيرت معالمها فى عهد شارلكان (٢) . ثـم اقام الملك دون بدرو الاول الذى عرف بحبه للفنون الاسلامية وصداقته الحميمة بسلطان غرناطة ، الى الجنوب الغربى من قصر الموحدين الذى كان يشغل على وجه التقريب موضع بعض الدور المطلة على بهو البنود، بالاضافة الى بهو العدل وقصر الجص وقاعة كراكول Cuarts de caracol الدارسة (٣) ، واقام قصرا جديدا أقرب ما يكون الى قصور بنى نصر بغرناطة مستغلا فى بنائه مواضع من القصور العبادية ومستعينا بعرفاء مدجنين من طليطلة واشبيلية ، وعرفاء مسلمين استقدمهم من مملكة بنى الاحمر بغرناطة ، ومن المعروف ان القصور الاسلامية كانت تمتد حتى الموضع الذى تشغله دار التجارة مع الهند Casa de la contratacion de les Indias ويقع فيما بين مبانى القصر الحالية والكاتدرائية ، وكانت تعرف فى سنة ١٣٣٢ م باسم القصر القديم (٤) .

---

1) Elie Lambort, L'art gothique a Seirlle apris la recon quete, Revue Archeolgique, Paris, 1932, p. 155.

2) Ibid, p. 161.

3) Guerrero Lovillo, guia de Sevilla, ed. Aries, Barcelona, 1952, p. p. 11 - Lamperez (V.), Arquitecture civil espanola, del los siglos I al XVIII, Madrid, Vol, I, 1922, p. 599.

4) Torres Balbas Ars Hispaniae, T. IV., arte Almohade, Madrid, 1949, p. 30.

وبينما تولى الملك خـوان الثانى ترميـم القصور الاسلاميـة والمسيحية (١) أقام الملكان الكاثوليكيان قاعات ومصليات داخل نطـاق القصر ، كما أجرى الملك شارلكان اضافات جديـدة وفقا لطـراز عصر النهضة .كذلك اضاف كل من فيليب الثالث والخامس اضافات جديدة (٢) ولقد تعرض بعض هذه العمائر للحرق (٣) والهدم والترميم كمـا حدث فى عهد ايزابيلا الثانية (١٨٥٤/١٨٥٧) (٤) .

ومع كل ما سبق ذكره من اضافات وهدم وترميم فقد كان قسـم من القصر المبارك ما يزال قائما فى عهد بدرو الاول صحيح ان الفونسو العاشر قد أسس قصره القوطى بالقرب من القصر المبارك أو داخل قسم منه،وذلك حول البهو المعروف ببهو المصاب el Patis del crucero كما أقام نفس الملك قاعته المعروفة بقاعة العدل فى قطاع القصر الموحدى ومن الجائز انه هدم لهذه المنشآت التى أقامها قسما كبيرا من القصر المبارك وقصر الامارة العباد ومع ذلك فقد أبقى على قسم لا بأس به من القصر المبارك ، ولانشك فى أنه ساعد على اقامة المنشآت الجديدة تصدع المنشآت الاسلامية أو سقوط بعضها وتخربه فى أعقاب الحصار الطويل (خلال ١٧ شهرا) الذى احكمه القشتاليون حول اشبيلية وما تبع ذلك من قذف هذه المنشآت بالمجانيق (٥) وقد عبـر الشاعر الاشبيلى أبـو

---

(١) ارسل الملك دون خوان عددا من الرسائل اصدرها من شقوبية من بينها رسالة من هذه المدينة فى ٣ يوفمبر سنة ١٤٢٧ تتضمن اشارات هامة الى مجموعة من الفنايين المدجنين الذين يعملون فى ترميم قصر اشبيلية .

2) Contreras, Estudis descriptivo de los monumentos arabes gramada, Seivlla y cordoba, Madrid 1885, p. 100.

3) Conteras, op. cit., p. 115.

4) Guerrero Lovillo, op. cit., p. 11.

(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، قسم ٣ ص ٤٣٧ .

موسى هارون عن ذلك فى قصيدته التى رثى بها اشبيلية ، ووصف ما نال أهلها من الشدة ، ومنها :

انا الى الله قد حل المصـاب ومـا
من حيلة فى الـذى أمضى ومـا حتما
فى كل حـين تـرى صرعى مجدلـة
واخريـن أسارى خطبهـم عظمـا
وقد أحاطت بنـا الاعـداء فاغـرة
افواهـا تبتغى ارواحنـا طعمـا
عفت يد الشرك ما شاد الخلايف من
قصر ومن مصنع ضخم حكى ارمـا
من ينصر المنزل الاعلى يقـل ولهـا
مـا خط قـط لذا أسى ولا رسمـا
اين القبـاب التى كـانت محجبـة
فيها الملوك تفيض الجود والكرما (١)

ويعتقد الاستاذ جيريرولوبيو فى بحثه القيم عن القصر المبارك أنه لم يندثر فى جملة ما اندثر من ابنية الموحدين ، ويعتقد ايضا انـه تبقى منه أثر هام لعله نفس مجلس الثريا ، استنـادا الى بعض العناصـر المعمارية التى تحتفظ بها قاعة السفـراء بقصر اشبيلية الحـالى وهى لا تختلف كثيرا من حيث كثافة زخارفها ودقة تنميقاتها وتنوعها أو حتى من حيث التخطيط عن نظيرتها فى قصر الحمراء بغرناطة اللهـم الا فى وجود العقد المنفوخ ثلاثى الفتحات الذى يشبه نظيره فى القاعات الملكية

(١) راجع القصيدة فى البيان ، ص ٣٨٢ — ٣٨٤ ولاحظ ما ذكره الشاعر فى الابيات الواردة بالمتن بشأن ما آلت اليه القصور العبادية والموحدية من مصير سيىء وما أصابها من تدمير بحيث شوه معالمها وأطاح بقبابها التى كانت تعلو على عمران اشبيلية مطلة على الوادى الكبير .

بقصبة مالقة من عصر الطوائف ، وكلاهما استوحى فكرة العقد ثلاثى
الفتحات من المجلس الغنى بقصر الزهراء (انظر الشكل) ويؤكد الاستاذ
جيرير ولوبيو ان قرطبة كانت قصدر الهام فنى لملوك الطوائف اليهامها
تجاوز اشكال العقود الى اسماء القصور ، ويخرج من مناقشة الطويلة
بنتيجة حاسمة ومقبولة وهى أنه وصلت الينا من قصر المعتمد اجزاء
رئيسية فى أهم ابنيته داخل نطاق المجموعة المعمارية الكبرى التى يمثلها
القصر الحالى ، وان هذه الاجزاء لاتعدو المجلس الرائع الذى اتخذه
المعتمد داخل المبارك وسماه الثريا ، ولكنها وصلت الينا فى ثوب مخالف
لما كانت عليه زمن المعتمد ، فقد تجردت من كسوتها الزخرفية القديمة ،
وكسيت زخارف مغايرة ، الا أن جوهر الثريا مايزال واضحا من حيث
التخطيط والعناصر المعمارية التى تنطبق على قاعة السفراء (١) .

واذا احصينا البقايا الاخرى التى وصلت الينا من القصر المبارك
نضيف الى ما سبق العقدين التوأمين المنفوخين على شكل حدوة الفرس
وهو النوع الشائع استخدامه فى العصر الاموى وعصر الطوائف ،
ينفتحان فى الجدار الخلفى من واجهة بهو الجص ، ونعتقد ان هذين

Jose Guerrero Lovillo, op. cit., p. 104 - 109.

وقد اطلعنى الاستاذ جيريرو ايضا فى مقابلة اخيرة معه على ان قاعة
السفراء الحالية ليست فى الواقع سوى قاعة من قاعات قصر الثريا
اعيد كسوة جدرانه وفق الاسلوب الغرناطى زمن السلطان محمد
الخامس الذى كان صديقا للملك القشتالى بدور الاول . ويعتقد ان قبة
هذه القاعة الحالية اقيمت مكان قبة مقربصة اثارها ما زالت موجودة
حاليا ، وفى هذه الحالة تصبح قبة قصر الثريا او قبة مقربصة اقيمت
فى مبنى اسلامى فى الايدلس واقدمها . ولست اوافقه على هذا الراى
لان القباب المقربصة لم تظهر فى المغرب والاندلس قبل عصر المرابطين
(راجع مقالى

Elsayed A. Salem, Algunos aspectos del florecimients economico de alveria islamica durante el periodo de los Taifns y de los Taifas y de los Almoravides, Revista del Instituto Egipcio de Madrid, Vol. XX, 1979, p. 17, No, 1.

العقدين يمثلان جانبا من القصر المبارك أو الزاهى وان الموحدين أعادوا استخدامهما بعد ان كسوهما بزخارف حصينة من طابع زخارف الموحدين • ويتوسط البهو المذكور حوض لعله كان قائما من عصر المعتمد على غرار الاحواض والبرك الصناعية فى قصور الزهراء ، وقد تكون هى نفسها البركة التى أشرنا انفا انها أقيمت فى القصر الزاهى ، وذكرنا ان تمثالا لفيل كان منصوبا على حافتها يمج الماء من فيـه • وقد تكون هنـاك فى مجموعة القصر الحالى بقايا أخرى من قصور المعتمد ما تزال دفينة فى باطن قاعاته وأبهائه ، أو طمست معالمها بكسوات زخرفية تغطى جدرانها ولكن الكشف عنها يحتاج الى دراسات أثرية وحفريات وهو أمر يصعب تحقيقه لان الاثار التى وصلت الينا من مجموعة القصر ، وان كانت غير متجانسة من حيث الاسلوب الفنى والمعمارى ، الا أنها تؤلف مجموعة متكاملة يتعذر التضحية ببعضها فى سبيل الكشف عن اثار غير مؤكـد العثور عليها •

٢ ــ اثار قصور الموحدين داخـل مجموعة القصور العباديـة :

من العسير استخلاص ما أقامه الموحدين فى مجموعة الابنية التى تؤلف اليوم قصر اشبيلية فقد كان يتألف من مركزين رئيسيـين : قصر الملك دون بدرو الذى أقامه فى سنة ١٣٦٤ م على ابنية اسلامية والقصر المسمى بالقصر القديم • والذى يهمنا دراسة اثار القصر الموحدى الذى اقامه أبو يوسف يعقوب على انقاض احد قصور المعتمد بن عباد ، هذا القصر لم يتبق منه اليوم سوى قاعة الجص ببهوها الضيق الصغـير الذى يتخذ شكل مستطيل يقوم فى أحـد جانبيه القصيرين صـف من العقود يتألف من عقد كبير منكسر يتوسط من كل جانبيه الايمن والايسر ثلاثة أقواس صغيرة تتكىء على أعمدة أعيد استخدامها من قصر المعتمد بن عباد ، ويؤلف حافات العقود السبعة خطوط متموجة • وبنيقتا العقد الاوسط تغطيهما شبكة من أشرطة منحنية متشابكة على شكل معينات ،

فى حين تمتد العقود الجانبية وتتقاطع متحرفة لتحدث معينات مخرمة ، ويقابل هذه البائكة فى الجدار المقابل جوفة من ثلاث عقود على شكل حدوة الفرس تتكىء على عمودين مركزيين • كذلك تبقت من القصر الموحدى قبة ذات اثنى عشر ضلعا متقاطعا فيما بينها فى غرفة بالمنزل رقم ٣ من بهو البنود ، غير بعيد من بهو الجص ، وتشبه هذه القبة كثيرا من حيث التخطيط قبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان (١) وهى قبة يرجع تاريخ انشائها الى عصر المرابطين ، تقوم على أساس تقاطع ١٢ ضلعا دقيقا بارزا من الاجر ، ويشغل الفراغ المركزى الناشىء من تقاطع ضلوع القبة قبوة مقربصة ما تزال فى المرحلة الاولى من مراحل تطور نظام المقربصات • ولكن هذا التشابه يقل عند مقارنتها بقبة المحراب بالمسجد الجامع برباط تازا التى ازدادت تنميقا وتأنقا لزخارفها الكثيفة وتوريقاتها المتطورة (٢) • ويميل الاستاذ توريس بلباس الى نسبتها اى نسبة قبة القصر الاشبيلى — الى عصر المرابطين لتشابهها الكبير بقبة المحراب بجامع تلمسان ، مع الفارق فى زخارف التوريق الكثيفة المخرمة التى تغمر تلمسان (٣) ؛ ولكننى أعتقد أنها موحدية وان تاريخها يرجع الى بداية عهد الخليفة أبى يوسف يعقوب الموحدى،

---

(١) راجع التفاصيل فى :

Henri Terrasse, L'art Hispano Mauresque, Paris, 1932, p.; 235.
Georges Marcais, l'architecture musulmane d'occident, Paris, 1954, p. 195.

ما نويل جومث مورينو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ترجمة د . أحمد لطفى عبد البديع ود . السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٤٥ .

2) Henri Terrasse, La grande mosquee de Taza, Paris, 1943, p. 28, Georges Marcais l'architecture musulmane d'Occiednt, p. 268.

3) Leopoldo Torres Balbas, Ars Hispaniae, arte almohade, Nazari y mudejar, Vol, Iv, Madrid, 1949, p. 31.

لان طابع المقرنصات التى تشغل مركز القبـــة أقرب الى نفس طابـــع مقربصات ديلاس أو يلجاس ببرغش •

٣ ــ اثار حصن الفرج :

تقع قرية سان خوان دى حصن الفرج San Juan de Aznalfarache الى الجنوب الغربى من ربض طريانة قبلى اشبيلية ، وكانت بحصنهـا المنيع وبموقعها الاستراتيجى الهام على قمة مرتفع مسطح تشكل الخط الدفاعى الامامى عن اشبيلية فى عصر الموحدين والمركز للدفاعي الرئيسي عن منطقة الشرف • ونستدل من كتاب تقسيم اشبيلية Sevilla بعد ان استولت عليها قوات القشتالين ، انه لم تكن بهذا الحصن فى عصر الموحدين حامية لها قيمتها بخلاف شلوقة San Lucar وطلياطة Tejada ولا نستبعد أن يكون هذا الجصن قد هجر وتعرض للتخريب بعد سقوط اشبيلية بدليـل أن الملك وهبة فى سنـــة ١٣٨٤ م لمدينة اشبيلية ، وبفضل هذه الهبة تحول الحصن بالتدرج الى قرية تحمل اسم المنظمة الدينية العسكرية التى آل اليها وهى سان خوان ثم اسم الحصن وهو حصن الفرج (١) •

ومن المعروف ان حصن الفرج كان من الحصانة بحيث لم تتمكن قوات القشتاليين اقتحامـه بسهولة فقـد أكتفى دون بلايـو كوريـا Don Pelayo Correa بالمرابطـة بقواتـه ادنى الحصـن دون أن تنال قواته منه شيئا (٢) ، الى ان دخلته فى سنـــة ١٣٤٦ بعد مقاومـة عنيقة • ويؤكد دى ثوينيجا مؤرخ اشبيلية مناعة الحصن بقوله : « ان اطلاله تشهد بمناعة قلعته ، وتقـع فى أعلى نشر مجاور للوادى وبـه

---

1) Yulio Gonzales, op. cit, I. I, p. 497.

2) Alfonso X, Cronica General, PP. 750, 751.

تنتهى المرتفعات من سلاسل جبال سيرامورينا مشرفة على سهول طريانة » (١) .

ولم يتبق اليوم من حصن الفرج الا اثار السور الذى كان يحيط بالقلعة ، اذ أن القرية الحالية هى مجموعة من الابنية الحديثة . ومادة بنيان هذا السور من الملاط ، اما الابراج وكلها رباعية الشكل فقد توزعت فى ستارة السور على مسافات متقاربة ، وهى صماء حتى الارتفاع الذى نشاهده اليوم ، مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأنها كانت تشتمل على غرف عليا فى مستوى ممشى السور على غرار ابراج سور مقرانة باشبيلية .

وبخلاف ذلك لم يتبق أى أثر للقصر ولا لقبابه التى أبدع الشعراء فى وصفها ، وحتى هذه الاسوار الباقية ، لا تحتفظ تماما بحالتها الاولى بعد ان تعرضت لاعمال الاصلاح والترميم عدة مرات .

1) Oritz De Zuniga, Anales eclesiasticas, t. I, p. 11.

نبذة عن قصور دولتى المرابطين والموحدين :

كنا نجهل ما كانت عليه قصور المرابطين فى اسبانيا الاسلامية حتى أمكن الكشف عن بقايا قصير « ميتقـوط » فى سهل مرسية عـلى بعد أربعة كيلو مترات شمال شرقى هذه المدينة ، ويعتبر هذا القصر المثل الأول الذى احتذاه الموحدون فى قصورهم بأشبيلية ومالقة وقرطبة ، والذى احتذاه بنو نصر من بعدهم فى بهو السباع بحمـراء غرناطة . وأهم ما يتميز به التناسق التام فى مخارج سوره ومداخله وفى توزيع غرفه ، ويتوسط هذا القصر صحن مستطيل يطل على جانبيه القصيرين جوسقان مربعان بارزان يمهدان لجوسقى بهـو السباع بغرناطـة . ويتقاطع ممشيان يؤلفان محورى البناء على شكل صليبى ، وتمتلىء المستطيلات الأربعة الناشـئة من هـذا التقاطع بأشجـار البرتقـال والليمون . وقد اقتبس هذا النظام نفسه بعد ذلك بقرنين من الزمـان فى جامع القرويين بفاس ، وفى بعض قصور أمراء بنى مرين بمراكش .

ولم يذكر مؤرخو العرب جهود الموحدين فى بناء القصور ، ومع ذلك فان عصر الموحدين يعتبر من أزهى العصور فى البناء والتشييد ، فقد أقاموا الدور والقصور فى غرناطة وقرطبة ومالقة واشبيلية ، وقد نوهت كتب التاريخ بما بذله أبو يوسف يعقوب من بنائه قصر البحيرة خارج باب « جهور » من أبواب اشبيلية وأمده بالمياه من قلعة جـابر وقرمونة ، وأضاف سنة ٥٦٧ ه (١١٧١م) قاعات أخـرى الى قصر بنى عباد باشبلية بقيت منها أجزاء تعد غاية فى الروعة والجمال وسط خليط من الاضافات المسيحية ، ولا تزيد هذه البقايا عن جزء من قاعة الجص وقبوة من المقرنصات والضلوع بالمنـزل رقم ٣ فى بهـو البنود بالقصر وبقايا سور وأبراج كانت تحيط بالقصر القديم .

قصور الحمراء بغرناطـــة :

لم تكن غرناطة زمن الفتح الاسلامى سنة ٧١٢ ميلادية سوى قرية صغيرة افتتحها المسلمون عنوة ، وضموا اليهود الى قصبتها ، ولعـل ذلك كان سببا فى تسميتها بعد ذلك « باغرناطة اليهود » • ومنذ الفتح لم يعرها المسلمون اهتماما اذ استقر جند دمشق فى البيرة التى ظلت حاضرة كورة البيرة زمن بنى أمية • ولكن غرناطة أخــذت تنمو شيئا فشيئا منذ القرن العاشر ، وأصبحت مدينة كبيرة ، فلما سقطت الخلافة بقرطبة ، استولى البربر على البيرة ، فخلت وانتقل أهلهــا منها الى غرناطة ، وبزغت شمس غرناطة وأصبحت حاضرة كورة البيرة ، ثم أخذ اسم غرناطة يسيطر تدريجيا على الكورة ، وأخيرا حل محل اسم البيرة•

وكان لموقع غرناطة على الضفة اليمنى من نهــر شنيل واختراق نهر حدرة لها — أثر كبير فى احاطة الجنـــان والبساتين بها ؛ وكانت تشرف من الناحية الجنوبية الغربية على فحص فسيح ، وكــان يطل عليها من الشرق والغرب جبل شلير الــذى لا يفارقه الثلــج شتاء أو صيفا (Sierra Nevada) •وكان للمرتفعين اللذين يفصل بينهمــا نهر حدرة واللذين عليهمــا مدينــة السلاطين وحــى البيازين — أهميـة استراتيجية عظيمة كان لها أثر كبير فى مناعة المدينة •

ولما سقطت غرناطة فى أيدى البربر جعلها زاوى بن زيرى عــام ١٠١٣ ميلادية عاصمته ، وقــد مدنهــا حبوس الصنهاجــى وحصن أسوارها ، وخلفه ابنه باديس بن حبــوس فكملت فى أيامــه • وظلت غرناطة عاصمة بربر صنهاجة حتى استولت عليها جيوش المرابطين عام ١٠٨٩ ميلادية ويغلب علــى الظن أنهــم جعلوها حاضرة دولتهــم فى الأندلس ، ثم فتحها الموحدون عام ١١٤٦ ميلادية • وفى نهاية عهدهم نجح ابن هود ملك بلنسية سنة ١٢٣١ ميلادية فى ضــم غرناطــة الى

ملكه ، وبعد وفاته سنة ١٢٣٧ م ضمها اليه محمد بن يوسف بن نصر سيد حصن أرجونة وبسطة ووادى آش وشريش وجيان ومالقة ، وجعلها عاصمة مملكته •

وكانت اسبانيا الاسلامية اذ ذاك قد تحطمت أعوادها وانكمشت رقعتها أمام الدفع السريع للاسترداد القومى الاسبانى على أثر سقوط المدن الكبرى كقرطبة سنة ١٢٣٦ م ومرسية سنة ١٢٣٩ م واشبيلية سنة ١٢٤٨ م فى أيدى النصارى • وكانت الأحوال السياسية وقتئذ تحتم تأليف جبهة قومية قوية أمام الخطر الجاثم ، فقامت مملكة غرناطة التى دامت مايقرب من قرنين ونصف القرن من الزمان بالرغم من الصراع غير المتكافىء بين النصرانية والاسلام ، وبالرغم مما عانته مملكة غرناطة من حروب داخلية • وكان توسل بنى الأحمر بسلاطين بنى مرين فى الجانب الآخر من الزقاق ، ثم عقدهم محالفات سياسية مع ملوك قشتالة — عاملا قويا فى اطالة أمد هذا الصراع • وترك محمد الأول عام ١٢٧٢ م ملكا قويا يستطيع الثبات أمام الأعداء • وكان تقلص الاسلام قد أدى الى تركيز أهل الفنون بالأندلس فى غرناطة ، فوفد اليها أهل الحرف والصناع ، وأقاموا فيها واستغلوا كل شبر من أراضيها ، فنهض فن العمارة وأقام محمد الأول قصبته الحمراء وبنى فيها برج الطليعة Torre de la vela وبرج التكريم Torre de Homenage كما أقام فيها بعض الأسوار القوية ، وخلفه ابنه محمد الثانى «١٢٧٢ — ١٣٠٢» وكان سياسيا حصيفا استطاع أن يوطد سلطانه فى البلاد ، وكان لايتردد فى الاستنجاد ببنى مرين كلما أحس بشبح الاسترداد يهم بمملكته ، وتلاه محمد الثالث ، ومع أنه كان ضريرا فقد كان نشيطا عالما ، مولعا بالفنون والعمارة فبنى قصرا بالحمراء ، كما بنى

المسجد الجامع بالقصر [١] ، وقد هدم فى طليعة القرن السابـع عشر ولم يبق منه سوى ثريا برنزية محفوظة بمتحف الآثار بمدريد •

على أن العصر الذهبى لدولة بنى نصر يبدأ بعهـد أبى الحجاج يوسف الأول ، فقد كان حاميا للآداب والفنون ، فأقام أول نواة لقصر الأساطير بما فيه برج قمارش والبرج المعروف بقصر متشوكة والحمام الملكى وباب الشريعة وبرج الأسـيرة ومصلى البرطـل ، وظل يوسف الأول يحكم سنين كلها رخاء ، حتى قتل عـام ١٣٥٤ م وهـو يؤدى الصلاة فى جامع الحمراء ، وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله الذى أكمل فى الحمراء ما كان قد بدأه أبوه فيهـا ، ودام عهـده حتى سنة ١٣٩١ م ثم تولى الحكم بعده ملوك ضعاف ، وتوالت الأحـداث فى العهد الأخير الذى سبق مباشرة سقوط غرناطة آخر معقل للاسلام فى الأندلس فى أيدى النصارى ، وانبعثت الفتن بين أفراد الأسرة المالكة ، وقامت الثورات تأييدا لأحدهم على الآخـر • وكانت آخر حلقـة فى سلسلة هذه الفتن ذلك الصراع بين الزغل وابن أخيه أبى عبد الله بن أبى الحسن الذى أدى الى تسليم مدينة غرناطة فى ٢ من يناير ١٤٩٢م

ويشهد قصر الحمراء بغرناطة هذه الأحداث ، وتروى قاعاتـه وأبراجه قصة هذا الصراع الأليـم الذى انتهى بضيـاع الأندلس ، وتعتبر حمراء غرناطة مقبرة الحضارة الاسلامية ، ففيها وضع رجـال الفن من مسلمى الأندلـس خلاصة فنهم وعصـارة ما وصلت اليـه

---

(١) يذكر ابن الخطيب « السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر توفى سنة ٨١٠ هـ واعظم مناقبه ابتناء المسجد الاعظم بالحمراء فى غرناطة على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش ومن فخامة العمد واحكام اتوار الفضة وابداع ثرياتها ووقف عليه الحمام بازائه » انظر اللمحة البدرية فى الدولة النصرية طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ، ص ٥٠ •

عبقريتهم ، ومن أهم مزايا الفن الغرناطى أنه فن دنيوى على نقيض فن المرابطين . ولم يكن بناء بنى نصر للمساجد الا نتيجة للتوسع الاجتماعى الذى فرضته هجرة سكان المدن التى سقطت تباعا فى أيدى النصارى . وحتى هذه المساجد كانت تزخر بالزخارف التى تلهى المسلم عن صلاته وتجعل من هذه المساجد قصورا خيالية تسبح فى زخارفها وتنميقاتها الأبصار دون ملل أو كلل . بل ان هذه الزخارف كانت تغطى جدرانا رقيقة ضعيفة ، وتكسوها كما لو كانت أبسطة ، وهكذا يكشف فن غرناطة عن حقيقة طبيعية : هى رغبة شعب قد بلغ ذروة التطور فى التمتع بحاضره والشك فى غده ، وكذا كانت الأبنية التى زخرت بها غرناطة قصورا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف فى نطاق طبيعى لامثيل لجماله . وكان المجال الذى يحيط بهذه القصور يتجاوب هو وهذا التمتع . ونجح عرفاء بنى نصر فى احداث تأثير جمالى يصحب فن توزيع الخمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعى بالعمارة . فالحمراء تجلو لنا أروع أمثلة هذا الفن ، بل هى تعتبر واحة خضراء فى اقليم قاحل جاف تحرقه الشمس ، ولا تدع غابة الحمراء التى تحيط بالقصر السلطانى وكثافة الفروع — أى مجال لنفاذ أشعة الشمس ، كما أن هذه النسمات المنعشة التى تهز الأشجار فترطب الوجوه المحترقة والماء الذى ينساب بين الصخور ، والطيور التى تغرد على الأشجار وبين الأغصان والأفنان — كل ذلك — يجعل من قصر الحمراء قصرا أسطوريا أو جنة الله فى أرضه ، ويحمل المرء على أن يحيا فى عالم خيالى لا يفكر فيه الا فى القصور التى كانت تعيش فيها أميرات ساحرات . وهنا يبلغ الفن الغرناطى الذروة ، فقد أعد كل ذلك اعدادا دقيقا لتخدير المشاعر عن ادراك الحقيقة التى لا سبيل الى التغافل عنها وهى انتهاء دولة الاسلام فى الأندلس .

ويعتبر قصر الحمراء وقصر البرطل وجنة العريف أكمل مجموعة اسلامية للقصور الاسبانية ، وأقدم آثار الحمراء حصن القصبة الذى

ينسبونه الى مؤسس الأسرة محمـد بن نصر المعروف بمحمد الأول (١٢٤٨ ـ ١٢٧٢ م) ويغلب علـى الظن أنه أقام هـو وابنه محمد (١٢٧٣ ـ ١٣٠٢ م) فى قصر ما خارج القصبة • وكل ما بقى منه باب النبيذ (Puerta del vino) الذى ما يزال قائما فى معزل عن بقيـة الأبنية الأخرى داخل سياج أحدث منه • وبنى محمد الثالـث بدوره (١٣٠٢ ـ ١٣٠٩ م) نحو الشرق بقليل مسجدا سلطانيا لا أثر لـه اليوم ، اذ أمر فيليب الثانى بهدمه سنة ١٥٧٦ م •

أعمال يوسـف الأول : وينسـب الى يوسف الأول (١٣٣٤ ـ ١٣٥٤ م) وابنه محمد الخامس (١٣٥٤ ـ ١٣٩١ م) بناء القصور السلطانية بالحمراء وهى التى أقيم تحول صحنى الريحان والسباع • وما ينسب الى يوسف الأول يشتمل على السور الحصين الذى يحيط بمرتفع الحمراء بأبراجه وبوابته العظمى المعروفة بباب الشريعة الذى ينم نظام بنائه عن اصالة وعن فن اسـلامى بحت لادخـل للعناصر المسيحية فيه • وقد تم بنـاؤه فى ١٣٤٨ م وفقا لمـا احتواه النقش الكتابى • وقد أطلق عليه باب العدل نسبة لصورة يد مفتوحة ومفتاح ، ترمز الأولى الى العدالة ويرمز المفتاح الىمدخل قصور الحمراء ، كما أطلق عليه اسم باب الشريعة نسبة الى المصلى الذى كانت تقام فيـه صلاة العيدين والابتهالات الى الله أوقات الشدة والقحط والجفاف •

ومن أقدم قصور الحمراء التى ترجع الى عهد يوسف الأول قصر البرطل (١) ويعنون به فى الأندلس الظلة التى تقـوم على بائكة هـذا القصر بين برج السيدات (Las Damas) مصلى صغير ، وتتألف ظلة

---

(١) تعنى هذه الكلمة المظلة او السقيفة وقد وردت فى نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦ (طبعة محيى الدين عبد الحميد) عند ذكره استقبال الخليفة الناصر للملك اردون عند باب الاقباء بالزهراء .

هذا القصر من خمسة عقود أوسطها أكثرها ارتفاعا • ويطل هذا البرطل على بركة تزودها نافورة أسفل العقد الأوسط — بالمياه • وراء هـذا البرطل وفى ركن منه قاعة مربعة تشبه البرج يمكن الارتقاء منها الى طبقة أعلى عن طريق درج الى اليسار • ويغطـى الجدران التى تعلو عقود البائكة شبكات من زخرفة المعينات ، ويحيط بالجدران ازار من الزليج تتعدد فيه الرسوم الهندسية الملونة • وتقوم عقود البائكة على أربع أرجل من الآجر •

والى يمين البرطل من شرقه وعلى درب السور أو ممشاه مسجد صغير ملحق بالبرطل لصق دار قديمة ، ويتناقض هذا البناء الصغير فى بهاء عمارته ونوافذه المفتوحة على كلا الجانبين وبناء الأسوار والأبراج المجاورة فى حمرتها وعرائها من الزخرف ، ويبلغ طـول هذا المسجد ٤ر١٦ من المتر وعرضه ٣ أمتار ، وفى رأسه محراب يقابل الباب ويتجه نحو الجنوب الشرقى وتعلوه قبوة مقرنصة • ونستطيع أن نرجع بناء هذا المسجد من أسلوب زخارفه الى عهد يوسف الأول •

ولا يبعد برج الأسيرة كثيرا عن قصر البرطل ، اذ يقـوم على مرتفع يعلو الحفير الفاصل بين الحمراء وجنة العريف ، ويضم هـذا البرج قصيرا يتألف من قاعة أساسية تكتنفها شرفات ومخادع جانبية ، ويتوسط البرج صحن داخلى صغير يحيط به من جهاته الأربع مجنبات• وزخرفة قاعات هذا البرج لاسيما تربيعاته الزليجية الملونة والزخرفة الجصية الرائعة التى ما زالت تحتفظ ببقايا ألوان وتذهيب تجعل هذا القصر من أجمل ما شيده يوسف الأول •

وبرج الشرفات أو الأسنة بين مصلى البرطل وبرج الأسيرة ، وقد سمى كذلك نسبة الى شرفاته المدببة وميازيبه البارزة على أحد جوانبه• ويناقض هذا البرج الأبراج الاسلامية الأخرى ، اذ من اليسير ملاحظة

أثر العمارة المسيحية فى بنائه ، ويغلب على الظن أن أسيراً مسيحياً ساهم فى بنائه ، والقبوة التى تعلو قاعة الطبقة الأولى منه تقوم على تقاطع العقود القوطية • وفى أسفل البرج تنفتح بوابة صغيرة ، وهنا تجلى منظر من الشعر الحزين ذلك هو أحدور الملك الصغير (cuesta del rey chico)

والى يسار برج السيدات برج مخدع الملكة (de la Reina) ويضم هذا البرج — شأنه فى ذلك شأن برج الأسيرة — قصرا صغيرا لطيفا يرجع الى يوسف الأول • ويتصل هذا البرج بقصر الريحان وبرج قمارش • وقد تغيرت الأجزاء العليا منه فى القرن السادس عشر ، وازدانت بروائع من فن التصوير الايطالى • وقد أعيد الى هذه القاعة مظهرها القديم •

قصر بهو الريحان : ويتألف قصر الحمراء من ثلاث مجموعات : اثنتان منها ترجعان الى عصر يوسف الأول ، والثالثة ترجع الى عصر محمد الخامس • وقد ضاعت معالم المجموعة الأولى التى كانت تشتمل على مجموعة من الأبنية لم يبق منها سوى أسسها • ويجاورها صحن فى جهته الشمالية مجنبة تتقدم برجا يعرف اليوم باسم برج متشوكة ، وهو مهندس شارلكان ، والى جانبه كان قصر العدل أو المشوار ، وفيه كانت تجرى الأحكام •

وتضم المجموعة الثانية — وترجع أيضا الى عهد يوسف الأول — قصر السلطان ومقر الحكم • ويعتبر هذا القصر أروع ما شيده السلطان يوسف الأول ، ويتوسط هذا القصر بهو الريحان ، وفى جهته الشمالية برج قمارش الذى يشتمل فى داخله على قاعة السفراء • ومن قمريات هذه القاعة ومنظراتها يمكن امتاع البصر بمنظر من أروع مناظر الطبيعة الساحرة ، وتنتقل العين فى نهر حدرة الذى تندفع مياهه أدنى البرج الى حى البيازين فى المرتفع الآخر المقابل للحمراء •

وزخارف هذا القصر يعجز عنها الوصف ، وتتألــف من زخرفة جصية ملونة هندسية ونباتية وكتابية • ويعلوه سقف خشبى تكسوه زخرفة هندسية • ويسبق قاعة السفراء رواق مستطيل يعرف باســم « رواق البركة Barca » ويعزون ذلك الى قبوته التى تشبه الزورق كما يعزون آخرون الى كلمة البركة العربية • ويطل على بهو الريحان بائكة مؤلفة من سبعة عقود أوسطها أكثرها ارتفاعا • وهو أروع مثال للصحن الأندلسى ، اذ تشغل وسطه بركة كبيرة مستطيلة الشكل تحف بها أشجار الريحان ، ومن هنا سمى أيضا باسم بهو البركة • ويقابل هذه الواجهة جنوبا واجهة أخرى مماثلة فى المحور نفسه ، ويتألف هذا الجانب الجنوبى من طبقتين •

والى شرقى مجلس قمارش وبهو الريحان الحمــامات السلطانية وهى من أقدم أبنية القصر • وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة من الأبنية ، وترجع الى عهد يوسف الأول الــذى سجل اســمه فى نقش كتابى • ويسبق الحمامات الى الشمال قاعة يطلــق عليها اسم قاعــة الأسرة ، وقد أجريت عليها اصلاحات عــدة فى القرن الســادس عشر غيرت كثيرا من معالمها القديمة • ويسقف القاعة الأساسية فى الحمامات قبة تخترقها مناور أو مضاوى وهى أشكال نجمية لانفاذ الضوء ، وتكسو الجزء الأدنى من الجدران تربيعات رائعة من الزليج ، وتحمل العقود المتجاوزة المنكسرة أعمدة صغيرة رشيقة •

أعمال محمد الخامس :

ذكرنا فيما سبق أن محمداً الخامس أتم وأصلح أبنية أبيه ، مثل ذلك قصر الريحان ورواق البركة على وجه خاص ، اذ أن زخــارفه تختلف تماماً عن زخارف قاعة السفراء • كما أنه زود قصر أبيه بمدخل رائع يطل على صحن المشوار ويتصل به أسطوان على شــكل المرفق يفضى

الى صحن الريحان . وتشبه واجهة هذا المدخل واجهة القصر باشبيلية الذى أسسه فى العصر نفسه بدرو القاسى ملك قشتالة .

وقد توج محمد الخامس أعماله المعمارية بتشييده المجموعة الثالثة فى قصور الحمراء ، وهى مجموعة قصر السباع . والمحور الأساسى لهذا القصر الجديد يتعامد هو ومحور بهو الريحان ، ونظامه جديد فى تاريخ العمارة الغرناطية فى القرن الرابع عشر ، اذ أنه بدلا من القاعتين اللتين تتمان فى الطرفين القصيرين للمستطيل فى بهو قصر جنة العريف وبهو الريحان ، أحاط بالصحن المركزى المعروف ببهو السباع فى واجهاته الأربع — أربع بوائك . ويتوسط الصحن فوارة تتألف من ثلاثة أجزاء : النافورة ، والحوض الأعلى ببيلته ، ثم الأدنى من الفوارة استدار تحتها اثنا عشر أسداً تمج الماء من أفواهها . ويدور بالحوض طراز كتابى فى مدح محمد الخامس . وتدور بالصحن أربع بوائك تقوم على عمدها الرفيعة الرشيقة عقود نصف أسطوانية مطولة تعلوها جدران مكسوة بالشبكات الزخرفية . ونقرأ فى جدران هذا القصر نقوشاً عربية منها : « عز لمولانا السلطان أبى عبد الله الغنى بالله » كما تزخر الجدران بأشعار ابن زمرك فى مدح هذا السلطان .

وصحن السباع على شكل مستطيل طوله ٢٨٫٥ متراً وعرضه ١٥٫٧٠ متراً ، ونظام هذا الصحن يماثل نظام صحن قصير منتقوط بمرسية ، اذ على جانبيه القصيرين جوسقان مقببان تحملهما أعمدة رشيقة ؛ ويتقاطع محورا الصحن وقد اتخذا شكل قناتين للمياه بحيث يؤلفان شكلا صليبياً . ويذكر الأستاذ لامبير أن الشكل العام لصحن السباع بما يحيط به من بوائك فى جهاته الأربع يبدو متأثراً بنظام

أبهاء الأديرة المسيحية (١) وان كنا نعتقد اعتقاداً جازماً أنه متأثر بنظام أبهاء المساجد أو الأربطة .

خلف الجوسق الغربى قاعة فسيحة تغيرت معالمها الاسلامية ، على حين أن خلف الجوسق الشرقى قاعة الملوك أو قاعة العدل (٢) ، وتزخر بالعقود المتعارضة التى تحشد فى بواطنها المقرنصات الدقيقة . أما القاعتان الجانبيتان للصحن شمالا وجنوباً فهما من أروع ما جاد به فن العمارة الاسلامية فى الأندلس ، فالقاعة الجنوبية وتعرف بقاعة بنى سراج تتوسطها بيلة من الرخام بها آثار بقع حمراء يقال : انها من دماء بنى سراج بعد أن قضى عليهم ملوك بنى نصر . وتعلو القاعة قبة رائعة الجمال من المقرنصات الدقيقة نجمية الشكل ، أما القاعة الشمالية المقابلة لها فسمها قاعة الأختين نسبة الى لوحتين كبيرتن من الرخام متماثلتين فى الشكل كانتا تكسوان الأرضية ، وتعلو هذه القاعة بالمثل قبة نجمية الشكل من المقرنصات الدقيقة التى تشبه خلايا النحل. وتؤدى هذه القاعة الى شرفة تطل على حى البيازين . وجميع جدران هذه القاعات مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحتشدة تتخللها كتابات كوفية نسخية وأدعية للسلطان . والأجزاء الدنيا منها مؤزرة بالزليج والفسيفساء .

وقصر السباع يضم أكثر من تأثير للفن المسيحى ، ويمكننا أن نفسر هذه الظاهرة بالعلاقات الودية التى أخذت تزدهر فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر بين غرناطة من جهة واشبيلية وطليطلة

Lambert, L'alhambra de Grenade, revue de l'art LXIII, p. 144-164.

(٢) تزدان بعض أسقف هذه القاعة بصور لملوك عرب ومناظر للطعان والحرب وغيرها ، ولكنها صور يبدو فيها التأثير الجاد للمدرسة الايطالية مما يجعلنا نظن ان فنانين مسيحيين ساهموا فى زخرفة هذه القاعة .

من جهة أخرى ، بين محمد الخامس وبدرو القاسى ، وقد نتج من ذلك حودث تبادل فنى بين عاصمتيهما ، ومن هنا نشأت صلات غريبة الشأن بين الفن الاسلامى بغرناطة والفن المدجن باشبيلية وطليطلة ، أو بينه وبين الفن القوطى المسيحى على نقيض ما حدث بين غرناطة وشمالى أفريقية فى القرن الرابع عشر • ومن مظاهر هذا التأثير المسيحى تعقد الزخرفة والغلو فى حشدها ، كما أننا نلمح فيها ظهور عناصر جديدة أكثر ، يقال عنها : انها طبيعية • وتتجمع هذه العناصر عادة فى أكاليل على النحو الذى اتبعته الزخارف المدجنة المعاصرة ، وتمتزج بهذه الزخارف رنوك على مثال الرنوك التى تزين الأبنية المسيحية •

قصر جنة العريف :

ونختم حديثنا عن القصور بذكر قصر جنة العريف ، فبخلاف قصور الحمراء ترتفع عدة تلال بحيث تشرف على وديان نهر حدرة ونهر شنيل ، وتستقى هذه التلال من مياه نهر حدرة عن طريق القنوات والحنايا والنواعير والأنابيب الماصة التى تخترق الوديان ، وبذلك أمكن انشاء جنات فيحاء تحيط بدور اللهو التى كان يشيدها أمراء المسلمين وقد زالت كل هذه الجنان حين كفت المياه عن الوصول الى تلك الدور ، الا فى جزء أقل ارتفاعاً ، ولكنه أكثر خصبا هو جنة العريف •

وقد تبارى الكتا بابان القرن السادس عشر فى وصف ومدح هذه الجنان التى نضب ماؤها فى وقتنا هذا وان كانت تزودنا مع ذلك بصورة شاحبة لمجدها الغابر الدارس وعيونها الرائعة وأشجارها وغاباتها التى تظلل قصورها •

والبناء الأساسى فى مجموعة أبنية جنة العريف يتألف من صحن

شديد الاستطالة تقوم فى طرفيه أبنية ، وفى وسطه قنــاة تنحدر فيها المياه ، وتنتصب فى الجهة الجنوبية مجموعة من العقود المتصلة ، ونظام البناء يماثل نظام القصر السلطانى فى مجموعة وان كان يسبقه تاريخيا، اذ أنه يحتوى على نقش كتابى فيه ذكر للسلطان اسماعيل الذى جدد القصر عام ١٣١٢ م .

وقد أقام سلاطين غرناطة فى هذا القصر وما يجاوره من القصور المرتفعة رغبة فى التمتع بالهدوء والاتصال الوثيق بالطبيعة . وكل شىء فى جنة العريف بسيط فى مظهره قوى فى تأثيره عــلى النفس ، ولا دخل لليد البشرية فى تعديل ذلك ، اذ ترك للطبيعة كل شىء . كما أنه كان من شأن زخارف هذا القصر وتوزيع منظراته ونوافذه واحاطـة نطاق طبيعى رائع به — وما يهيىء للمرء أن يحس بالراحة وأن يتمتع بكل ما يحيط به .

ويبدو لنا مما سبق عرضه أن من الظلم أن نتهم عرفاء بنى نصر بأنهم أهملوا فن العمارة وأقبلوا على الزخرفة ، وأنهم كانوا مزخرفين منمقين ولم يكونوا مهندسين معماريــين ، فان النظــام الرائع بقصر الريحان وقصر السباع والتناسق التام بين أجزائهما المختلفــة — تبين أن بنائى السلطان محمد الخامس على الأقل أحرزوا درجة عالية فى فن العمارة والجمع بين توزيع الفراغ والكتل ، كما وفقوا فى الجمع بين العمارة والطبيعة ، وكلها مقومات هامة لابد أن تتوافر فى فن العمارة والبناء .

واذا كانوا قد وجهوا النقد الى ضعف البناء فيكفى ردا على هذا النقد أن قصر الحمراء مازال قائما فى صورته الأصلية دون أن تتصدع جدرانه أو تنهار قاعاته ، ويكفى دلالة على المظهر المعمــارى لقصور الحمراء «مظاهرة الحمراء» التى حدثت فى ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٢ حين اجتمع وفد مؤلف من ٢٤ مهندسا معماريا فى قصر الحمراء للتفكير فى وضع أسس لعمارة قومية جديدة ، وكل مــا يمكننا أن نستخلصه من قرارهم أن « قصر الحمراء مستودع رائع للعمارة الاسبانية » .

الفصــل الثالث

التحصينـــــات

النظم الدفاعية فى المدن الأندلسية

النظم الدفاعية فى المدن الأندلسية :

أطلق مؤرخو العرب فى كتاباتهم عن المجتمعات الأندلسية المغربية عددا من التسميات ، التى تختلف تبعا لأهمية كل مجتمع من الوجهة العمرانية ، فكانوا يطلقون لفظة « مدينة » للدلالة على كل بلد لها حظ كبير من الأهمية ، بينما كانوا يطلقون عليها اسم « حاضرة » اذا كانوا يعنون بها عاصمة احدى الكور أو الأقاليم •

والمدن الاسلامية نوعان : الأول يشتمل على المراكز العمرانية السابقة على الفتح الاسلامى ، والثانى المدن التى أسست فى عهد الاسلام • وقد شهد الفاتحون عند فتحهم الأندلس بلادا غنية موفورة الرخاء ، ماضيها مجيد وعمرانها رفيع ، وأحس المسلمون عندئذ بالحاجة الى الاستقرار بها ، اذ وجدوا فى هذه المدن المأهولة من قبل ، نظاما ممتازا من الطرق فاهتموا به غاية الاهتمام ، اذ أن المراكز العمرانية بالأندلس ، المتقاربة فى توزيعها ، كانت تكتسب رخاءها من التجارة • وكان أغلبها يعتمد على ثراء ما يحيط به من قوى ومزارع الأمر الذى يفسر كثافة السكان بها •

ولما وطد المسلمون سلطانهم بحيث شمل الجزء الأعظم من شبه جزيرة أيبيريا وأحسوا بالاستقرار بعد الفتح ، عمدوا الى انشاء مراكز عمرانية جديدة تمكينا لمصالحهم الاقتصادية ورغبة فى تدعيم نظامهم الدفاعى أمام هذه المحاولات المستمرة من جانب الأسبان للتحرر ، هذه المحاولات التى ما لبث الاسبان أن بدأوها فى كوبادنجا فى لاوقت الذى لم يفرغ فيه المسلمون تماما من اخضاع شبه الجزيرة كلها لسلطانهم •

وتتميز أكثر المدن الأندلسية التى أسسها المسلمون ، بصفات حربية بحتة مما يدل على أنها أسست للدفاع عن بعض المناطق •

وأسماء هذه المدن يعبر بجلاء تام عن هذه الصفات مثل (قلعة جابر) Alcala de Guadaira و (التليعة) Alcolea و (قلعة أيوب Calatayub (قلعة رباح) Calatrava و (القصر) Alcazar و (حصن الفرج) Aznlfarache و (حصن القصر) Aznalcazar . وهلم جرا ... ...

وكانت تحيط بالمدينة الأندلسية الاسلامية أسوار منيعة تحميها من الغارات والغزوات .

واكتفى المسلمون ، فى أول عهدهم ، بالأسوار الرومانيـة حتى اذا ما اتسع نطاق المدينة بازدياد سكانهـا وتمثلت أسوارهـا نتيجة طبيعية للتوسع العمرانى وأصبحت هذه الأسوار عقبة كأداة فى سبيل العمران ، وتألفت خارج هذه الأسوار أرباض ارتبطت ارتباطا وثيقـا بالحومات أى الأحياء ، استعمل المسلمـون حجارة الأسـوار فى بناء المسجد الجامع وغيره من الأبنية ، وتحولت مواضع الأسوار المتهدمة الى طرق فسيحة أقيمت أسوار اسلامية على نطاق أكثر اتساعا بحيث تحيط بالأرض . ومثل ذلك ما فعله الأمير السمح بن مالك الخولانى فى بنائه لجسر قرطبة من أحجار سور المدينة سنة ١٠١ هـ (٧١٩م) :

وفى ذلك يقول صاحب كتاب « فتح الأندلس » أصـاب المسلمون اذ فتحوا الأندلس بمدينة قرطبة آثار قنطرة رفيعة القدر معقودة فوق نهرها الجارى على عدة جنايا وثاق الأركان من تأسيس الامم الماضية الدائرة لم يبق منها الا رسوم ، ولا يصل الناس الى قرطبـة الا فى السفن فيلقون فى ركوبها مشقة عظيمة ، فأمـر عمر بن عبـد العزيز السمح بن مالك ببنائها ؛ فصنعت على أتم وأعظم ما عقـد عليه جسر فى معمور الأرض من حجارة سور المدينة » .

وقد عمد الأمير عبد الرحمن بن معاوية بعد ذلك الى بناء سور آخر حول قرطبة فبناه باللبن : « وفى سنة خمسين ومائة (٧٦٦م) أمر

الامام ابن معاوية ببناء سور قرطبة فبنى ما كان جبر منـه باللبن اذ بنيت القنطرة من صخره فكمل بناؤه حسب ما أمر به » •

وقد حدث مثل ذلك فى اشبيلية اذ بنى عبد الله بن سـنان مولى عبد الرحمن الأوسط سور اشبيلية سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) من حجارة سورها القديم كما استعملت بعض هـذه الحجارة فى بنـاء مسجد اشبيلية الجامع المعروف بابن عدبس سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) • وحين هدمت هذه الأسوار للمـرة الثانية بعد أن اتسعـت المدينة فى عهـد الموحدين استخدمت أحجار السور فى بناء أساس الصومعة وقد عثرنا بالفعل على عدة أحجار عليها كتابة لاتينية فى احدى الجوانب السفلى بهذه الصومعة مما يدل على أنها تنتسب الى السور الرومانى القديم•

وكان يدعم الأسوار أبراج تتوزع فى السور على مراحل مختلفة كما كان يحيط بهذه الأسوار أسوار أخرى أمامية وتخترقهـا أبواب تيسر اتصال المدينة بخارجها ، كما كانت تقام قلعة أو قصبة فى أشد أجزائها ارتفاعا تدافع عن المدينة فى حالة الهجوم من أعلى ، وغالبـا ما تستند هذه القلعة الى جزء من أسوار المدينة ليسهل عـلى حاميتها الفرار فى الوقت المناسب •

وكان المسلمون منذ الفتح فى حرب دائمة مـع نصارى اسبانيـا الذين مافتئوا يجاهدون منذ وطئت أقدام المسلمين هذه البلاد من أجل استردادها ، واصطبغت هذه الحرب منذ عهد ملوك الطوائف بصبغـة دينية حين اتسعت رقعة اسبانيا المسيحية بعـد أن سقطت الخلافـة الأموية سنة ١٠١٠ م • وقامت على أنقاضها دويلات صغيرة مـا لبثت أن استسلمت الى الفونسو السادس ملك قشتالة بمجرد قيامها ، ولا نستثنى من هذه الدويلات سوى مملكة اشبيلية ، وقد استنجد ملكهـا المعتمد ابن عباد الذى تولى الحكم فى ١٠١٢ الى ١٠٩١ م بيوسف ابن

تاشفين أمير المرابطين ومؤسس هذه الدولــة فى المغرب ، اذ كان رعى الجمال أهون عليه من رعى الخنازير ، وبالفعل سارع يوسف لنجدة المعتمد من طغيان الفونسو السادس ، وهزماه هزيمة نكراء فى واقعة الزلاقــة Sagrajas عام ١٠٨٦ م بالقرب من بطليوس Badajoz ثم أنــزل منصور الموحدين بالنصارى هزيمــة كبرى فى واقعــة الأرك ١١٩٦ م وتعتبر هذه الهزيمة آخر انتصار للاسلام فى الأندلس .

ومنذ أن وفد بربر المغرب الى الأندلــس اصطبغــت الحرب فى الأندلس بصبغة الجهاد وتوسل النصــارى بملوك الفرنجــة واتسم الصراع بين القوتين بما يشبه الحروب الصليبية فى المشرق ، وان كانت تغلب فيه الناحية القومية : وكــان من نتائج هــذا الصراع أن اهتم المسلمون بالذود عن أراضيهم والدفاع عن كرامتهم فعمدوا الى تحسين وسائل دفاعهم وتفننوا فى مناعتها فابتدعوا نظما جديدة فى التحصينات من ذلك « الأبراج البرانية » والمداخل ذات المرافق لتضليل الأعــداء ومفاجأتهم .

ونود هنا تفسير كل العناصر المعمارية التى تتألف منهــا العمارة الحربية الاسلامية فى الأندلس .

الأسوار الأساسية « الستارة » :

كانت تحيط بالمدينة من جميع جهاتها لترد عنها هجمات الأعداء . وقد اتخذ المسلمون بادىء ذى بدء النظام الرومــانى فى أسوارهم ، وهكذا بنوا أسوار مدينة اشبيلية وأسوار قصبة مــاردة فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط . كما بنوا أسوار مدينة الزهراء وأسوار حصن غرماج فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر .

وكانت مدينة قرطبة ، على حد قول الشريف الادريسى تتألف من

خمس مدن متتالية حوطت كل واحدة منها بستور فاصل وكـــان بناء هذه الأسوار بالأحجار على نحو الاسلوب الذى كانت تتبعه العمارة الرومانية من حيث طريقة توزيع الأحجار واعتدال خطوطها .

كان ذلك فى عهد الخلافة الأموية بقرطبـــة عندما ســـاد سلطان المسلمين فى شبه الجزيرة . فلما سقطت الخلافة الأموية واستقل كـــل أمير باماراته ، وبدأ عهد ملـــوك الطوائف ، شرع هـــؤلاء فى تحصين بلادهم . ويذكر المؤرخون أن سور اشبيلية بنى باللبن فى زمن الفتنه ، كما بنى كذلك سور قرطبة وقرمونة وبطليوس ، ويبدو أن السبب فى ذلك هو العجلة فى حماية المدن من الغارات التى كان يشنها الطامعون من هؤلاء الملوك على المدن الأخرى المجاورة ، والرغبة السريعة فى سد الثغرات التى كانت تتخلل الأسوار السابقة ، كما يبدو ذلك فى سور اشبيلية الذى أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بهدمه سنة ٩١٣ م على يدى سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم ، رغبة فى منع المحاولات التى كان يبذلها أشراف المدينة للاستقلال عن السلطة المركزية فى قرطبة .

على أن تحسينات كثيرة أدخلت فى النظام المعمارى لبناء الأسوار الأندلسية فى عهد المرابطـــين « ١٠٩٠ م ــ ١١٤٥ » نتيجـــة حتمية للظروف السياسية التى كانت تحيط بهم وقتئذ . وقد وضعـــوا نصب أعينهم دفع التقدم الذى أحرزه النصارى فى عهد الفونسو السادس عند توسعه فى حركة الاسترداد القومى ، وقد ابتكر المرابطون نظامـــا جديدا فى تخطيط الأسوار ، ذلك أنهم عمدوا الى الاكثار من الزوايـــا الداخلية والخارجية بالسور بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة متكسرة ، وميزة هذا النظام أن يترك الجند أعداءهـــم يتقدمون داخـــل احدى الزوايا ثم يندفعون عليهم من أعلى الأسوار على الدروب فيفتكون بهم فتكا ذريعا . ويشبه هذا النظام الزمبرك اذا ضغط عليـــه ثم ترك ، اندفع بقوة فيصيب ما يقابله . وقد ظل هذا النوع من الأسوار قائما فى اسبانيا حتى آخر العهد بدولة الاسلام فى الأندلس .

ويتألف السور فى الأندلس فى أعلاه من درب يسير عليه المحاربون
ويسمونه المؤرخون أحيانا بممشى الســور ، وشرفات يقذفــون منها
سهامهم ، ودروات يحتمون خلفها • والدروات كتل قائمة تنتهى بشكل
مخروطى • ويتخلل جسم الدورة فتحات تساعد المحارب عـلى النظر
الى أسفل دون أن تصيبه أسهم الأعداء • وقد تبقى من أسوار المدن
الأندلسية عدد كبير ما زال سليما فى أكثر أجزائه ، كما هــو الحال فى
أسوار غرناطة والمرية وقرطبــة واشبيلية وطليطلة وشريش ومالقــة
وبطليوس •

الأبـــراج :

١ البرج المربـــع :

وكان يقوم بين مسافة وأخرى من الستــارة أبراج أكثر ارتفاعا
منها بحيث تبرز الى خارج المدينة ، وكانت أغلب هذه الأبراج تتخــذ
شكلا مربعاً كما هو الحال فى أبراج حصن منتقوط بمرسيــة وأبراج
سور اشبيلية وقرطبة وبعض أبراج غرناطة والمرية وقصبة مالقة وجبل
فارو وجبل طارق • ويتألف البرج من نصفين : نصف أدنى مصمت
ونصف أعلى وتشغله غرفة ، تعلوها فى بعض الأحيان غرفة أخرى
أعدت للدفاع وفتحت فيها منافذ السهام ويغطى الغرفة فى أغلب الأحيان
قبوات نصف كروية ، وكثيرا ما يمر الدرب فى داخل البرج فيصبح ممر
تغطيه قبوات متعارضة ملتصقة • ويرتقى الراقون درجــا فى داخل
البرج يفضى الى أعلى بحيث يشرف على الأسوار جميعــها ، ويدور
بأعلى البرج شرفات ودراوى هرمية الشكل ، وأبــراج غرناطة كبرج
الملكة وبرج قمارش وبرج الأسيرة قصور كسيت جدرانهــا بالزليج
والزخارف الجصية الدقيقة وغطيت سقوفها بأروع ما وصل اليه فــن
المقرنصات من تعقيد •

البرج المضـــلع :

ليس البرج المضلع أو كثير الضلوع ابتكـارا اسلاميا ، اذ أنـــه يرجع الى تقاليد فنية قديمة ، وقد عرفته العمارة الرومانية • ومـــن أمثله ذلك البرجان اللذان يجنحان باب قرطبة بمدينة قرمونة مثمنـــا الشكل وأبراج مدينة فريجوس مسدسة الشكل ، والأبراج التى تحيط بقصر دقلديانوس بسبيطلة والتى ترجع الى بداية القرن الرابع مثمنة الشكل ، وهناك أبراج مؤلفة من اثنى عشر ضلعـــا كما هو الحـــال فى برجى بالاتين بتورين وهو من عمل الامبراطور أوجست ، وقد عرفت العمارة البيزنطية بالأبراج المضلعة وخاصة النوع السداسى مثل ذلك حصن سيزيك بآسيا الصغرى وحصن سن البرج فى شمال أفريقيا •

وقد تأثر المرابطون والموحدون بصفة خاصة ــ بالعمارة البيزنطية فشيدوا أبراجا مسدسة الشكل ــ كالبرج المسدس المنعزل فى حصـــن العقاب (لاس نافاس دى تولوسا) بالقرب من جيـــان ، والبرج المطل على قنطرة القاضى بغرناطة • وقد استعمل الموحـــدون البرج المثمن على نحو منظم فى بناء أبراجهم (البرانية) وهو تعبير أندلسى بحت عن الأبراج الخارجية عن نطاق السور • وما لبث أن شـاع هذا النوع فى المدن التى تقع على الحدود بين المسلمين والنصارى مثل مدينة القصور وبطليوس • كما استخدموا أبراجا مؤلفة من اثنى عشر ضلعا كما هو الحال فى برج اسبانتا بروس ببطليوس وبرج الهب باشبيلية • وفى مدينة لبلة برج كثير الأضلاع يعرف ببرج الذهب • وقد شاعـــت الأبراج المثمنة فى الأندلس كما نشاهده اليوم فى مدينة شريش وشنتمرية •

والبرج المثمن يفضل بكثير عن البـــرج المربع من وجهـــة النظر الدفاعية ، اذ أنه بكثرة ضلوعه يمكن المدافعين من التحرك فى كافـــة

لاستدارته وسهولة الانتقال فى أجزائه • ومن هذه الأبراج مـا نراه اليوم فى الأبراج التى تحيط بالبيازين فى غرناطة •

البرج البرانـى :

لما اشتد الخطر المسيحى على المدن الأندلسية ، ابتدع الموحدون نوعا جديدا من الأبراج تسمى « الأبراج البرانية Torres Albarranas قصد بها تدعيم الستارة ، اذ أنه يقع عادة خارج الستارة ويربطه بها ستارة أخرى تسمى قورجة (١) Coracha لتغلق الطريق أمام الأعداء فى أضعف أجزاء السور • وهكـذا أقيمت الأبراج البرانيــة بمدينة بطليوس وطلبيرة وماردة وقلعة جابر • وهـذا اللفظ مشتق مـن كلمة برانى ويدل على الأصل الاسلامى لهذا النوع من الأبراج ولاثبات ذلك يكفى أن يلاحظ أن أقدم هذه الأبراج هى أبراج قصبة بطليوس وحصن القصور اللذين يرجعان الى عصر الموحدين • وليست لدينا أمثلة أخرى منها فى فن العمارة البيزنطى أو العمارة الاسلامية بالمشرق • وترجـع الأبراج البرانية الى عصر الموحدين وتتخذ اما الشكل المربع أو الشكل المثمن كما هو الحال فى أبراج قصبة الموحدين ببطليوس وأسوار مدينة استجة وقلعة جابر • ولكن البرج البرانـى المثمن يمتـاز على البرج البرانى المربع بأنه أكثر منه مناعة وأكثر حصانة اذ أن جوانبه ضعف جوانب البرج المربع وان كان البـرج المستدير أفضـل من هذيـن النوعين • ولم يستعمل الموحدون البـرج المستدير لأن بناء الأبـراج المربعة والمثمنة بالملاط والأحجار أسهل من بناء الأبـراج المستديرة • وقد شاع بناء هذه الأبراج الأخيرة فى شمال افريقيا فى قلعـة أمرجو ورباط وهما من عصر المرابطين • ومن أمثلة الأبراج البرانية باشبيلية

---

(١) قورجة اصطلاح [illegible]

برج الذهب وبرج الشرفة وببطليوس برج اسبانتشا بروس ، ويرتبط برج الذهب بالستارة الأساسية عن طريق قورجة لم يتبق منها اليوم أى أثر ، وأصبح البرج منعزلا عن حافة نهر الوادى الكبير ٠

السور الأمامى « الحزام البرانى أو البربخانـة » :

أتاحت الحروب المستمرة التى قام بها البيزنطيون العناية بالعمارة الحربية للدفاع عن مدنهم • وكانت أسوار هذه المدن تتألف من ستارة أساسية تدور حول الحصن أو المدينة ثم سور أمامى آخـر أقل من السور الأساسى ارتفاعا يبعد عنه بمسافة تعادل ربع ارتفاع السـور الأساسى ، ويحيط هذا السور الامامى بالأبراج ويدور حـوله حفير أو خندق • وكان المسلمون فى اسبانيا يشاهدون هـذا النظـام المعمارى الفريد فى اعجاب وما لبثوا أن أقبلـوا على تقليده • ويذكـر مؤرخو العرب بداية استعمال هذه الأسوار الأمامية منذ القرن العاشر الميلادى • غير أن الدلائل المادية تشير الى أن استعمال المسلمين لهـذا النوع من الأسوار بدأ فى عهد المرابطين بشمال أفريقيا كما هو الأمـر فى قلعة أمرجو ، ويعتقد « تراس » أن السور الأمامى من أصل مسيحى •

وقد أحس الموحدون بأهمية هذا النظام فى تحصيناتهم • اذ أن السور الأمامى يمنع العدو المهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ منها داخل المدينة ، وهكذا اهتم أبو يعقوب يوسف بتحصين قلعة جابر التى كانت تعتبر المركز الدفاعى الأمامى لمدينة اشبيلية وحصنها • كما أنه شيد الأسوار الأمامية لقصبة بطليوس المنيعة ويغلب على الظن أن الموحدين أقاموا الاسوار الأماميةلقصبة بطليوس المنيعة ويغلب على الظن أن الموحدين أقاموا الأسوار الأمامية فى جيان وشريش والجزيرة الخضراء وبسطة ولوشة ومالقة • أما سور اشبيلية الأمامى فقد شيده الخليفة أبو العلا

ادريس المأمون بن أبى يعقوب يوسف سنة ٦١٨ هـ «١٢٢١ م» وحفر حوله خندقا • وقد تبقت من هذا السور الاشبيلى أجزاء هامة تبدأ من باب المقارنة حتى باب قرطبة •

الأبــواب ذات المرافــق :

كان يتخلل الأسوار أبواب تصل داخل المدينة بخارجهـا ، وكان النظام البيزنطى لهذه الأبواب هو عقدان متقابلان أحدهما ينفتح الى الداخل والآخر ينفتح الى الخارج • وقد ابتدع المرابطون نوعا آخر من هذه الأبواب هو الأبواب ذات المرافق ونعنى بذلك أن الممر الواصل بين فتحتى الباب ينحنى بزاوية قائمة فى شـكل المرفق وتمتاز هـذه الأبواب بوضع عقبات أمام المهاجمـين بتلك الانحناءات وقـد عقد الموحدون من هذا النظام اذ أنشأوا أبوابـا مرافقها مزدوجـة ، ولم يسقفوا هذه الممرات حتى يتيح الفرصة للجند بالاشراف من عل على المهاجمين وقذفهم بالنبال والنار الاغريقية يصبونها عليهم صبا • ومن هذه الأبواب ذات المرافق نذكر باب de los Pesos بغرناطـة وباب Monaita بهـذه المدينة ويرجعان الى عصر المرابطـين ، وباب قرطبة باشبيلية ، وباب مدينة لبلة ويرجعان أيضا الى عهد المرابطين •

ومن عهد الموحدين يرجع باب Capitol وباب الزائدة Apendice ببطليوس • أما الأبواب ذات المرافق الثلاثة فتوجد بمراكش مثل أبواب قصبة الأودية برباط • وقد اتبع ملـوك بنى نصر النظـام الموحدى الأندلسى للابواب ذات المرفق الواحد كما هو الشأن فى باب العدل أو باب الشريعة بحمراء غرناطة •

هذه نظرة سريعة موجزة عن بعض وسائل الدفاع المدنى الاسلامى فى الأندلس فى العصور الوسطى ويمكن أن نستنتج منها مدى ما وصلت

اليه العمارة الحربية الأندلسية من تقدم يفوق نظيراتهـا فى المشرق الاسلامى .

وتحتفظ الأندلس فى وقتنا هذا بتراث هائل من الحصون والقلاع الاسلامية التى تنطق بالدور الكبير الذى قامت به ، كمـا تعبر بقايا الأسوار والأبراج عن الجهاد المرير الذى قام به المسلمون للاحتفاظ بوطنهم والدفاع عن شرفهم وكرامتهم . وقد ظلت هـذه العناصر المعمارية الاسلامية مثلا يحتذى للعمارة المدجنة والمسيحية حتى عصر النهضة حين فقدت التحصينات من قيمتها الدفاعية القديمـة على أثر ما ابتكرته الحروب من آلات حربية جديدة كالمدافع والمتفجرات .

فهرس الموضوعات

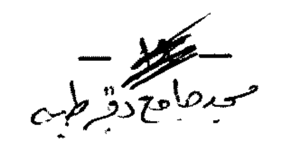
الفصل الأول

المســـــاجد

أولا : المسجد الجامع بقرطبة .

ثانيا : المساجد الأندلسية في عصر الدولة الاموية وعصر ملوك الطوائف

ثالثا : المسجد الجامع بقصبة اشبيلية .



بمسجد عبد الرحمن الأول ، فأزاح عللها وبالغ فى اتقانها وأعادها الى أول نشأتها • وتطورت هذه اللفائف فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم بلغت أقصى مراحل تطورها زمن الحكم المستنصر ، فازدوجت وأصبحت زخرفية بحتة •

مات الأمير عبد الرحمن الأوسط وقد بقى عليه فى هذه الزيادة بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة أتمها ابنة الأمير محمد سنة ٢٤١ هـ فاستوفيت الكمال فى أيامه اذ استوعب طروز المسجد وأوثق أبوابه وأقام المقصورة فيه عام ٢٥٠ هـ وكان أول من اتخذها هنالك من خلفاء بنى أمية • ويعقد باب سان استيبان نقش كوفى يشهد بهذا الاصلاح نصه « بسملة ••• أمر الأمير أكرمه الله محمد بن عبد الرحمن ببنيان ما حكم به من هذا المسجد واتقانه رجاء ثواب الله عليه وذخره به ، فتم ذلك ••• فى سنة احدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه • مسرور و [نصر فتياه] » •

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال فى الجامع ووضع فيه الأموال الموقفة لغياب المسلمين ، وأمر بتجديد السقاية واصلاح السقائف • ويغلب على الظن أن بيت المال هذا كان يشبه بيت المال بجامع دمشق الذى ما يزال قائماً حتى اليوم وكذلك « قبة الخزانة » بجامع حماة وحمص ومنبج المقامة فى وسط الصحن • ثم زاد أخوه الأمير عبد الله بن محمد ساباطاً معقوداً على حنايا ، أوصل به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ثم أمر بستارة من آخر هذا الساباط الى أن أوصلها بالمحراب ، وفتح الى المقصورة باباً كان يخرج منه الى الصلاة فلا يراه أحد فى مجيئه ولا انصرافه ولايتكلف له مؤونة تيام ولا ارصاد خروج • فكان أول من اتخذه من خلفاء بنى أمية بالأندلس ، فاتبع سبيله فيه كل من جاء بعده منهم •